رسائل

على طريق النور

كتبه الشيخ

ياسر برهامي

عفا الله عنه

دار الخلفاء الراشدين

رسائل على طريق النور

فضيلة الشيخ

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين





رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٦٠٤١

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر

أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٢٠١٥٢٩٠٨-٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية - مصطفى كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٠٦٧١٤٣٦٨-٠١٠٢٧٧١٠٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

فأن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ..

فإن الله ـ سبحانه ـ أرسل رسوله مبشّرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، يُنير القلوب بعد ظلمتها ، ويوقظها بعد رقدتها وغفلتها فتبصر حقائق الوجود ، وتحيا من موت الكفر والنفاق ، وتشفى من أدواء الشبهات والشهوات ؛ فاللهم لك الحمد على إرساله ، وإنزال الكتاب

عليه ، ولك الحمد على هدايتنا للإسلام وتوفيقنا له ؛ كما تقول وخيرًا مما نقول ، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد خصه الله ﷻ وفضَّله على من سبقه من النَّبيين بخصال عديدة ، منها : أنه أوتي جوامع الكلم ، فكانت كلماته ودعواته على اختصارها ووجازتها جامعة لمعاني الإيمان ، مُجددة لحقائقه في القلوب ، مُذكرة بالله واليوم الآخر ، باقية كمعجزة مستمرة دالة على صدقه ونبوته ﷺ .

ولا شك أن من تدبر الأدعية الثابتة عنه ﷺ وجد نفسه أمام شمس مبهرة لا ينقطع نورها ، ووجد حياة لقلبه تُحركه على طريق النور الذي سار عليه النبي ﷺ وصحبه الكرام ـ رضوان الله عليهم - وتبعهم على ذلك السلف الصالح ـ رحمة الله عليهم ـ .

ولما كانت حاجتنا ـ خصوصا في أيام المحن التي تمر بها أمتنا ـ إلى تذكّر معالم هذا الطريق ضرورية ، وكان تحقيق التغيير من داخلنا - من الأعماق وليس فقط في الظاهر -

مطلبًا أساسيًا لكل العاملين في الحقل الإسلامي ، حتَّى يغير الله ما بنا ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؛ كانت هذه رسائل في بيان ما تضمنته ثلاثة من أدعيته ﷺ الثابتة عنه في الأحاديث الصحيحة من معاني الإيمان والتوحيد وتزكية النفوس واستنارة القلوب وإحيائها بحقيقة ذكر الله ﷻ .

لما وجدت في نفسي نفعها ؛ وددت لو انتفع بها أحبتي وإخواني في الله والمسلمون ؛ لنضع أقدامنا على طريقٍ سبقنا عليه الصالحون ، وسار عليه المتقدمون ، نسأل الله أن يلحقنا بهم سالمين ، وأسأله سبحانه ، أن يجعلها خالصةً لوجهه ، متقبلة عنده ، نافعة لكاتبها وناشرها وقارئها ، ومن يعلمها للناس في الدنيا والآخرة ، وأن ييسر إتمام أخوات لها مع أدعية أخرى من أدعيته وأذكاره ﷺ ، رزقنا الله رفقته مع باقي النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الفردوس .. آمين .

الرسالة الأولى

إن أدعية الرسول ﷺ عند تأملها تمثل معجزة ظاهرة من معجزاته ﷺ ، فقد أوتي جوامع الكلم ، ويدرك ذلك مَن تدبَّر الأدعية الصحيحة الثابتة عنه ، وما فيها من المعاني الرائعة الجميلة التي تجعل القلب والعقل والروح تقف مبهورة أمام هذا الجمع الهائل من حقائق الإيمان في الجمل البسيطة السهلة ، والتي تدخل مباشرة إلى القلب المفتوح لها .

نسأل الله أن يشرح صدورنا ويفتح لقلوبنا عيونًا تبصر بها هذا الجمال وتُطعم وتُسقى من معينه المُيَسَّر ، حتى تحيا من جديد حياة من نوع آخر ، وتستنير بنوره ﷺ الذي جعله الله له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥- ٤٦] ، ورغم تباعد السنين يصل نور هذا السراج إلى من اجتباهم الله من عباده قويًا ظاهرًا مبهرًا ، فيقول المرء : فكيف بمن اقترب منه زمانًا ومكانًا وعلمًا وعملًا وسلوكًا ؟! فكيف بمن رآه وصحبه ؟! كيف نصيبهم من هذا النور ؟! فاللهم اجعل لنا في قلوبنا نورًا ، وفي لساننا نورًا ،

واجعل في سمعنا نورًا ، وفي بصرنا نورًا ، واجعل من خلفنا نورًا ، ومن أمامنا نورًا ، واجعل من فوقنا نورًا ، ومن تحتنا نورًا ، اللهم أعطنا نورًا ، فمن لم تجعل له نورًا فما له من نور .

من هذه الأدعية العظيمة المباركة دعاء النبي ﷺ في استفتاح الصلاة ، وهو حديث صحيح متفق عليه ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ (وفي رواية : وأنا أول المسلمين) ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ؛ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ؛ لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ... »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) .

هذا الدعاء العظيم كان النبي ﷺ يستفتح به الصلاة .

ففي قوله ﷺ : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

« وَجَّهْتُ وَجْهِيَ » أي : وِجْهتي وقصدي وإرادتي . والوجه : يطلق ويراد به : الوِجهة ، كما يقال : سرت في هذا الوجه ، ويحتمل أن يكون الوجه هو العضو المعروف ، وتوجهه لازم للوجهة والقصد ، والأول أظهر ، وهذه الجملة موافقة لقول الخليل إبراهيم عليه السلام ، قال الله ﷻ عنه : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

وتوجيه الوجهة لله - سبحانه - وإفراده بالقصد هو حقيقة الإخلاص والعبادة والحب والانقياد ، فهو تحقيق توحيد الألوهية ، وإذا تأملنا هذه الكلمة من إبراهيم عليه السلام وقعت بعد قوله عن الكواكب : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧] ، وقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧] ، يتبين لنا أن توجيه الوجه لله سبحانه هو إفراده

بالحب ، حب العبادة الذي لا يستغني العبد عنه طرفة عين ، ولذا لا يحب من يَغيب فهو يحتاج إلى الحب كل حين ، ويحتاج إلى هداية ربه كل لحظة وخطرة ونَفَس ، لا غنى له أبدًا عن إلهه ومولاه ، فإذا قال العبد : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » ، استشعر حبه سبحانه وتذكر فضله بهدايته له حتى وجّه وجهة قلبه إليه .

فأنت ـ أيها العبد ـ وجهت وجهك لله ، لأن الله هداك ووفقك وأعانك وأخذ بناصيتك إليه حتى أحببته وعرفته فاطرًا للسماوات والأرض ، أي : خالقهما على غير مثال سابق ، وهذا إقرار بتوحيد الربوبية الذي هو أعظم دليل على توحيد الألوهية .

فالمتأمل لخلق السماوات والأرض يجد بلا تردد آثار العلم التام والقدرة التامة ، والحكمة التامة ، والعزة والقهر والقوة والمجد والعظمة والجمال والجلال ظاهرة تمام الظهور من الذرة إلى المجرة ، ويرى توازنًا عجيبًا وإحكامًا وإتقانًا ، ويرى ملكًا باهرًا ، وكما كانت بداية الآيات : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وإذا كان العاقل منا إذا رأى مسمارًا على حائط ولو بعد وضعه بمئات السنين وآلافها لأيقن أن إنسانًا عاقلًا متطورًا ـ كما يقولون – وصل إلى درجة من العلم تجعله يصنع المسمار ويبني حائطًا ، و لأيقن أنه كان له غرض في دق المسمار في الحائط ، كما يجد الباحثون عن الآثار جِرَارًا من الفخار وأوانيَ فيقطعون بأنها من صنع حضارة معينة ، ولا يوجد عاقل يتصور أنها صنعت بلا صانع أو بلا هدف ، فكيف بملك السماوات والأرض ؟! تعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علوًا كبيرًا .

وكثرة التفكر في خلق السماوات والأرض من صفات أهل الإيمان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩١] فكيف يمكن أن يكون الخلق خُلق سدىً بلا حكمة ولا أمر ولا نهي ولا حساب ولا عقاب ؟! ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

فإذا شهد العبد ذلك وجّه وجهه ولابد للذي فطر السماوات والأرض ممتثلًا أمره متبعًا شرعه راجيًا ثوابه خائفًا من عقابه ، ويفعل ذلك : « حنيفًا » أي : مائلًا إلى الله مُعرضًا عن غيره ، وهذا الميل إلى الله هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]، وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ » (١) وهذه الحنيفية ملة إبراهيم التي بُعث بها رسول الله ﷺ وهي الدليل الثاني على توحيد الالوهية .

فتوحيد الربوبية والذي يدل عليه التفكر في خلق السماوات والأرض هو الدليل الأول ، وهو الأكثر استعمالًا . والدليل الثاني على توحيد الألوهية هو دليل الفطرة ، أن العباد يجدون في أنفسهم ميلًا وحبًا لإلههم الحق ومعبودهم الذي لا

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) .

شريك له ، ولا تطمئن قلوبهم ولا تسكن نفوسهم إلا إذا توجهت إليه وأحبته وعظَّمته وخضعت له ، فيجد العبد في هذا التوجه والميل نفسه وحقيقة غايته في هذه الحياة ، والحكمة من وجوده ومصيره الذي يصير إليه .

يجد الإجابة عن الأسئلة الفطرية الضرورية : من أنا ؟

ومن أين جئت ؟

ولماذا جئت ؟

وماذا يريد مني من جاء بي وخلقني ؟

وإلى أين أذهب ؟

وإذا جرب العبد لذة التوحيد والعبادة والحب : وجد شيئًاس لا نظير له في حياته كلها ، ووجد نعيمًا لا يدانيه نعيم آخر ، ويجد راحة لا تماثلها راحة أخري بشيء من الموجودات ، ويتأكد هذا المعنى عنده بوجود توحيد العبادة إذا كان قد جرب قبل ذلك الجاهلية والتوجه لغير الله ومدى ضرره وشقائه وعذابه به ، أو تأمل أحوال غيره من البشر ليرى كيف يشْقَون بآلهتهم الباطلة ، ويعانون معاناة لا نظير لها

من أصنام وأوثان وشمس وقمر ونجوم ، ورياسة ومُلك ودرهم ودينار ، وكبراء ورؤساء ومُطَاعين وضعوا لهم نظريات فاسدة وأديانًا باطلة تشقى بها أجيال تلو أجيال في دنياهم قبل أُخراهم ، فيوقن ويزداد يقينًا بأن لا إله إلا الله ، فيكون حنيفًا ويتبرأ من المشركين ويبغض طريقتهم وملتهم وصفاتهم وأعمالهم ، ويبغضهم ويفارقهم حتى ولو كان محتاجًا في دنياه لموافقتهم ، فلذة عبوديته لربه تُسَلِّيه عن فقد بعض مصالح دنياه - مؤقتًا - بسبب هذه البراءة قبل أن ينتظمها له التوحيد والعبادة إنتظامًا يجمع الله له به شمل دنياه وأخراه ، ويحصل له الخير والنفع في عاجله وآجله .

والمتأمل يلحظ أن كل جملة من هذا الدعاء تقود التي تليها أو هي دليل لها ، فتوحيد الربوبية في : « الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » دليل على توحيد الألوهية في : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ » ، والتفكر في خلق السماوات والأرض يبين للعبد آثار الأسماء الحسنى والصفات العلا من الجلال والجمال والمجد والعظمة ، فلا يجد العبد بدًّا من الميل الفطري إلى الله

حبًا وانقيادًا وتعظيمًا وبُعدًا عمن سواه : « حنيفًا » ، وهذا البُعد عمن سواه من المعبودات الباطلة يستلزم بغضًا وبعدًا وبراءة منها ومن عابديها ، « وما أنا من المشركين » . فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ، وتمت كلماته صدقًا وعدلًا ، وله الحمد على ما شرع لعباده وهداهم لحقائق الإيمان المتلازمة المترابطة التي تفتح كل حقيقة منها لصاحبها أبواب الحقائق الأخرى ، كمن دخل قصرًا ووجد كنزًا ، فإذا دخل غرفة من غرف القصر وجد مفاتيح غرف أخرى ، وكلما طالع جواهر الكنز وجد معها ومنها مفاتيح كنوزٍ أخرى ، فاللهم نوِّرْ قلوبنا بحبك ، وزدنا علمًا ويقينًا وإيمانًا .

وقضية البراءة من المشركين في :

﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قضية عظيمة الأهمية في عقيدة المؤمن وفي سلوكه ومعاملاته ، ولأن المصالح مشتبكة ، والأحوال متداخلة ، وقد اقتضت حكمة الله أن لا يُوجد في الدنيا المثالية المنشودة بل لا يزال الخير مختلطًا - عند أكثر الناس - بالشر ، ولهذا كانت هذه المسألة بحاجة إلى تكرار يومي حتى تستقر في نفس المؤمن ولا ينحرف إلى ما يخالفها ، تحت ضغط مصلحة موهومة ، أو لدفع مفسدة محتملة دون مفسدة موالاة المشركين في الحقيقة ، ولكن الموازين عند أكثر الناس مختلة ، والمعاني غير واضحة ، فلا يحسن استعمال الميزان الذي أنزله الله مع الكتاب : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] بل لا يهتدي إليه أصلًا ، فيزن المصالح والمفاسد بميزان العقل القاصر ، أو الهوى الغاوي ، أو التقليد الجاهل ، وما أصيبت الأمة بما أصيبت به من أنواع الضرر والهزيمة والذل والهوان وتسلط الأعداء إلا من جراء تضييع الإيمان ومنه قضية البراءة من المشركين ، بل

هذه القضية لها خصوصية في هذا الباب ، إن الركون إلى الذين ظلموا بموافقتهم في باطلهم وافتراء الكذب على الله وعلى دينه وعلى رسوله بما يوافق أهواءهم يفقد العبد ولاية الله ونصرته : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : ١١٣] .

والمتأمل لتاريخ الإسلام وما حدث من مصائب كبرى في تاريخ المسلمين ـ ابتداءً من سقوط بغداد ومرورًا بضياع الأندلس وأخيرًا احتلال بيت المقدس والأرض المباركة حوله من قبل اليهود واحتلال أفغانستان والعراق وغيرها من بلاد الإسلام ـ يجد أن الهزيمة دائمًا كانت بسبب فئة تتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وتخون أمتها وتنصر عدوها ، وإلا فأمة الإسلام قادرة قدرة عجيبة - بفضل الله تعالى - على الصمود في وجه أعتى الأعداء وأقواهم ، ولها قوة هائلة في الثبات أمام أقوى الأسلحة وأكثر الجيوش عددًا وعُدَّة ، حتى تحصل الخيانة وتسقط فئة في هوة الموالاة لأعداء الله وترك البراءة منهم ، فتحصل الهزيمة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فهذه القضية وكل قضايا التوحيد التي تضمنها هذا الدعاء العظيم تحتاج إلى تكرار حتى تستقر وتثبت بل تنمو وتكبر وتثمر ثمارها في حياة المؤمن ، فهي الشجرة الطيبة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم :٢٤- ٢٥] .

قول النبي ﷺ : « إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

هذا امتثال من النبي ﷺ لأمر الله تعالى له في القرآن ولكل مُكلَّف تبعًا له ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] أي : من هذه الأمة ، والأقرب أن يقول الداعي في هذا الموضع : « وأنا من المسلمين » كما في رواية لمسلم ، فإنه لن يكون أول المسلمين من هذه الأمة ، ولا يصلح أن يكون أول المسلمين في زمانه والله أعلم .

وهذه الكلمات المباركات تذكر العبد بغايته في الحياة ،

التي خُلِقَ من أجلها ، وهي تحقيق العبودية بمعناها الشامل لكل تصرفاته ، ويبدأ بالصلاة لأنها أعظم العبادات البدنية كما في الحديث الصحيح : « وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةُ » (١) وهي تتضمن عبادة القلب واللسان والجوارح ، وهي قرة العين للمحبين المتابعين لسيدهم وسيد الخلق ﷺ الذي قال : « وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » (٢) ، وكان يقول لبلال عنها : « يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا » (٣) ، ثم ذكر النُسُكَ وهو إما بمعنى : الذبح ، كما قال مجاهد وسعيد بن جبير والسُّدي والضحاك ، أو بمعنى : التعبد بجميع أنواعه ، فهو من عطف العام على الخاص ، فكل العبادات بما فيها الذبح فهي لله ﷻ وحده ، لا شريك له ، لا يصرف شيء منها لغيره كما قال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] أي اجعل صلاتك لله وحده ولا

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجه (٢٧٧) ، وصححه الألباني برقم (٩٥٢) في « صحيح الجامع » .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي (٣٩٣٩) ، والبيهقي ، والحاكم ، وصححه الألباني برقم : (٣١٢٤) في « صحيح الجامع » .

(٣) رواه أبو داود (٤٩٨٥) ، وصححه الألباني برقم (٧٨٩٢) في « صحيح الجامع » .

تسجد لغيره ، وكذلك اجعل نحرك وذبحك لله وحده لا شريك له ولا تنحر لغيره من الأوثان والأنداد والقبور أو أي مخلوق ، كما قال النبي ﷺ : « وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ » [١] .

ثم ذكر المحيا والممات ، فالمؤمن يحيا حياته كلها لله ، بأن يزن كل أمورها بميزان الإسلام ، ويعمل فيها بشرع الله ، ويدعو إليه ، ويسعى إلى أن يَعْبُد الخلق كلهم ربهم كأفراد ومجتمعات ودول وشعوب ، يسعى إلى تحقيق عبودية الفرد وعبودية الأمة ، وهو يموت على ذلك ، ويموت أيضًا من أجله ، فهو يحيى بالإسلام ومن أجله ، فتكون حياته لله ويموت على الإسلام ومستعدًا أن يبذل روحه من أجله فيكون مماته لله رب العالمين خالقهم ومالكهم وسيدهم الحق الذي له الخلق والأمر والتشريع : « لا شريك له » لا شريك له في ربوبيته ، ولا شريك له في ألوهيته ، ولا شريك له في ملكه ، ولا مثيل له في أسمائه وصفاته ، والعبد يشهد ذلك ويعلمه ، ويطبقه في أفعاله وأقواله فيحقق نوعى التوحيد

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨) .

العلمي والعملي ، الإقرار والشهود ، والقصد والطلب ، وينزه الله عن الشريك في الحقيقة ، وفي شهود العبد ذلك ، وفي استحقاق العبادة من العباد وهو واحد منهم ، فلا يشرك بالله شريكًا - أيّ شريك - في إرادته وقصده وتوجهه .

وقوله : « **وبذلك أُمرت** » يستحضر به أن الله أمره بالتوحيد ، وأنه امتثل أمره ـ سبحانه ـ وأطاعه وقَبِلَه ، بخلاف من رده وأباه : « **وأنا من المسلمين** » فهو يدخل في زمرة المسلمين ، يدخل في الأمة الواحدة : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء :٩٢] ، أمة أولها الأنبياء ، وأولها محمد ﷺ منزلة وقدرًا ، وهو أول المسلمين من هذه الأمة فهذا إعلان الاستسلام لله والانتماء لهذا الدين ، واختص أتباع محمد ﷺ بأن سماهم المسلمين من قَبْل خلقهم وإيجادهم ، وسماهم المسلمين في هذا القرآن العظيم : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] .

فالحمد لله أن جعلنا مسلمين ، ونسأله ـ سبحانه ـ أن يتوافنا مسلمين وأن يلحقنا بالصالحين .

« اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ »

الصراع بين الحق والباطل مستمر ، والمؤمنون يمثلون في كل زمان حلقة من حلقات هذا الصراع ، والقضية الأساسية في هذا الصراع هي قضية التوحيد وأن لا يُعبد إلا الله ، والخصومة في التوحيد مع أهل الشرك والكفر ، وقد قضى الله بعلمه وكلمته أن تكون قوة المؤمنين المادية غالبًا ضعيفة خصوصًا في بداية كل حلقة من حلقاته ، وأن يكون الملك والسلطان الظاهر في الأرض فيما يبدو للناس لأعداء الله ـ سبحانه ـ ، وذلك ليستعين المؤمنون بالله ويتوكلوا عليه لا على أنفسهم ، وليتعبدوا له بأنواع العبودية المتعددة والتي من أهمها شهود مُلكه في السماوات والأرض ، رغم ما يبدو للناس من مُلك الكفرة والظلمة . والمؤمنون جند الله ، جند الملك الذي لا يُغلب ، والذي لا يمانع ولا يغالب ، والتوسل إلى الله بهذا الاسم في الدعاء من أعظم ما يُستنزل به النصر وتثبت به الأقدام والقلوب ، ويتذكر به المؤمن حقيقة الميزان

في هذا الصراع ، ولا تغره زينة الدنيا .

كما في أثر وهب بن منبه قال الله لموسى :

« انطلق برسالتي ، فإنك بسمعي وعيني ، وإن معك يدي ونصري ، وإني قد ألبستك جُنْة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري ، فأنت جند عظيم من جندي ، بعثْتُك إلى خلق ضعيف من خلقي ، بَطَر نعمتي ، وأَمِنَ مكري ، وغرّتْه الدنيا عني ، حتى جحد حقي ، وأنكر ربوبيتي ، وزعم أنه لا يعرفني ، فإني أقسم بعزتي لولا القدَرُ الذي وضعتُ بيني وبين خلقي لبطَشْتُ به بطشةَ جبار يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار [١] ، فإنْ أمرْتُ السماءَ حَصَبَتْه ، وإن أمرت الأرض ابتلعتْه ، وأن أمرتُ الجبال دمرَتْه ، وإن أمرتُ البحار أغرقتْه ، ولكنه هان عليّ ، وسقط من عيني ،

---

(١) صاعقة صغيرة أحرقت محطة كهرباء الأمريكان ، أرعبت ٦٠ مليونًا من البشر وقلبت حياتهم رأسًا على عقب وعطلت كل إمكانيتهم ـ سبحان الله العظيم الحليم ـ واقعة ظلام في ١٦ جمادي الثاني ٢٤-١٤ أغسطس ٢٠٠٣ (آية من آيات الله عظيمة وهي من أصغر آياته) .

ووسِعه حلمي ، واستغنيت بما عندي ، وحقي أني أنا الغَنِيّ لا غَنيّ غيري ، فبلّغْه رسالتي ، وادعُه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي ، وذكّرْه أيامي ، وحذّرْه نقمتي وبأسي ، وأخبره أن لا يقومُ شيءٌ لغضبي ، وقل له فيما بين ذلك قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى ، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرعُ مني إلى الغضب والعقوبة ، ولا يروعنّك ما ألبستُه من لباس الدنيا ؛ فإن ناصيته بيدي ، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني ، وقل له : أجِبْ ربَّك فإنه واسعُ المغفرة ، وقد أمهلَك أربعمائةِ سنةٍ « الله أعلم بعمْر فرعون » ، في كلها أنت مُبارِزُهُ بالمحاربة ، تسُبُّه وتتمثل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يُمطر عليك السماءَ ، ويُنبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرَمْ ولم تفتقرْ ولم تُغلبْ ، ولو شاء الله أن يُعَجِّل لك العقوبة لفعل ، ولكنه ذو أناةٍ وحلم عظيم ، وجاهده بنفسِك وأخيكَ وأنتما تحتسبان بجهادهِ ؛ فإني لو شئت أن آتيَه بجنود لا قِبَلَ له بها لفعلت ، ولكن ليعلمَ هذا العبدُ الضعيف الذي قد أعجبتْه نفسه وجموعُه أن الفئةَ القليلة - ولا قليل مني - تَغْلبُ الفئة

الكثيرة بإذني ، ولا تُعجِبنَّكُما زينتُه ولا ما مُتِّع به ، ولا تمدّا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، ولو شئتُ أن أزينكما بزينة ليعلمَ فرعون حين ينظر إليها أن مقدرتَه تعجَزُ عن مثل ما أُوتيتما ؛ فعلتُ ، ولكني أرغبُ بكما عن ذلك ، وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي « اللهم اجعلنا منهم يا رب »، وقديمًا ما جَرَتْ عادتي في ذلك ، إني لأذُودُهم عن نعيمِها وزخارفِها كما يذودُ الراعي الشفيقُ إبلَه عن مباركِ الغِرَّة « الغرور » ، وما ذاك لهوانِهم عليّ ، ولكنْ ليستكملوا نصيبَهم في دارِ كرامتي سالمًا موفورًا ، لم تَكْلَمْه « أي : لم تجرحْه وتُنْقِصْه » الدنيا ، واعلم أنه لا يتزيّنُ لي العبادُ بزينةٍ هي أبلغ فيما عندي من الزهد في الدنيا ؛ فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يُعرفون به من السكينة والخشوع ، وسيماهم في وجوهم من أثر السجود ، أولئك أوليائي حقًّا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلِّلْ قلبَك ولسانَك ، واعلم أنه من أهان لي وليًا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة ، وبادأني وعرَّض لي نفسه ودعاني إليها ، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي ، أفيظن الذي

يحاربني أن يقوم لي ؟! أم يظن الذي يعاديني أن يُعجزني ؟! أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني ؟! وكيف وأنا الثائر « أي : الذي يأخذ بثأرهم » لهم في الدنيا والآخرة ، ولا أَكِل « أترك » نصرتهم إلى غيري ؟! » رواه ابن أبي حاتم .

إن هذه المعاني ليجتمع ما يمن الله به منها أو كلها أو أكثر منها في قلب العبد المؤمن وهو يقول : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » ، ويثني على ربه بهذا الثناء العظيم ، والذي يتكرر بعد ذلك في الفاتحة ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٣] ، وهو مالك كل الأيام ، وإنما خُصَّ يوم الدين لأنه الذي يظهر فيه ذلك للجميع دون منازعة ولا حتى في الاسم ، وإنما كان في الدنيا في قلوب المؤمنين وشهودهم دون غيرهم ، وإن حاجة المؤمن بل ضرورته لتمرير هذا المعنى على قلبه بل لترسيخه وثبوته ؛ حاجةٌ عظيمة حتى يستحضر أن ما يفعله الأعداء إنما هو بأمر مليكه المقتدر ؛ ليختبره في ذلك : أيفرده بالألوهية والعبادة والحب والخضوع والطاعة ، لا إله إلا هو ؟ أم يغفل ويظن أنهم يملكون فيتابعهم على الباطل ؟ اللهم إنا نعوذ بك من ذلك .

قول النبي ﷺ : « أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ » شهود الربوبية بعد شهود الملك والألوهية ، والثناء على الله باسم الرب مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد : « رَبِّي » له طعم خاص عجيب جميل في استشعار الإصلاح الخاص ، والحفظ الخاص ، والتدبير لأمر العبد ، وافتقار العبد إلى ربه ، وما لا يُحسن التعبيرَ عنه اللسانُ والقلم ، خصوصًا ما يأتي بعدها من التوسل إلى الله بأعظم عمل صالح يفعله مخلوق وهو العبودية :

« وَأَنَا عَبْدُكَ » فأنا أتوجه إليك بكُلّي ، وأنا فقير إليك في كل ذرة من ذراتي فتَوَلَّ أمري .

قوله ﷺ : « ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » إن وقوف القلب منكسرًا ذليلًا بين يدي ربه من أعظم أسباب جَبْرِه ، وأعظم أسباب محبته لربه ، وهذا الذل يحصل للعبد من عدة جهات كلها مطلوبة :

[١] ذلُ الفقر والحاجة : فالله الرب هو الغني ، والعبد مربوب فقير بمقتضى كونه مخلوقًا فقيرًا إلى النَفَس والطعام والشراب والكسوة ، فقير في نبض قلبه وجريان الدم في

عروقه ، فقير في مخه وعظمه وسمعه وبصره وفؤاده ، وفي كل جزء من أجزائه ، وفي كل شأن من شؤونه .

[٢] **ذل العبادة الذي يتحقق للعبد بقوله : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين »**وبقوله : « **وأنا عبدك** » فإن العبادة ـ خصوصًا هيئاتِ القيام والركوع والسجود ، ولاسيما السجود ـ تجلب للعبد ذلًا وانكسارًا لا يحصل له بغيرها .

[٣] **وذل الابتلاء والمحنة** :التي لا يملك العبد لها دفعًا إلا بالله ﷻ ، ولا يجد قوة عن رفع الضر عن نفسه وأهله ولا تحويله إلا أن يكشفه الله أو يُحَوِّلَه .

[٤] **وذل الحب المتضمن في معنى « الإله »** : فهو المحبوب لذاته ، الذي يذل له العبد ، فالحب يؤدي إلى الذل ، والذل يؤدي إلى الحب ، ويزيد كل منهما في الآخر ، فيظل العبد في ارتفاع وسمو ، والحب يُذِل المحِب لمحبوبه قطعًا .

[٥] **يبقى ذل الذنب وانكساره** وشعور العبد بظُلْمِهِ لنفسه ، ثم إقراره واعترافه بقلبه ولسانه أنه قد أذنب ،

وشعوره بأنه لا ينجيه ولا يخلصه من ذنبه ولا يغفره له إلا الله ، فيتوسل إليه بهذا الذل : « **ظلمتُ نفسي ، واعترفتُ بذنبي ، فاغفرْ لي ذنوبي جميعًا ، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت** » .

فيحصل له بذلك نوع من العبودية خاص لا يشبهه شيء آخر . من أجله قدر الله الذنوب على عباده المؤمنين ، وأوليائه المتقين ، بل على أنبيائه المرسلين وإن كانت ذنوبهم تختلف عن ذنوبنا ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] وقال النبي ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ** » (١) .

فاللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كثيرًا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم .

ثم لنتذكر أن هذه الكلمة كان بها نجاة الأبوين ، وتوبة الله عليهما : ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا**

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩) .

لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ومن شَابَهَ أباه فما ظلم ، وهي مع التوحيد كلمة النجاة من كل غم لكل مؤمن ، فهي دعوة يونس عليه السلام : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

قوله ﷺ : « وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ؛ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ؛ لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » .

الأخلاق منها وهْبِيٌّ جِبِلِّي يُفطَر عليه الإنسانُ حَسَبَما كان قبيحًا أو حسنًا ، ومنها كسبي عملي ، يسعى إليه الإنسان بجهده ، ويتخلق به ، فييسر الله من شاء لما شاء ، وكلا النوعين بيد الله ، وهما من عطائه ورزقه ، ورزق الإنسان في الأخلاق أهم وأخطر بكثير من رزقه في المال والجاه الدنيوي ، والنوع الأول قابل للتأثير عليه والتغير ، وإن كان الأثر فيما يُخالف ما جبل عليه الإنسان ليس كقُوَّتِه فيما يوافق ، لكن لو لم يكن التأثير لما كان هناك معنى لمدح حسن الخُلُق والتكليف به ، وذم سوء الخلق والتحذير منه ، وإن العبد لن يجد وسيلة لتحسين خلقه أعظم ولا أهم ولا أكبر أثرًا ـ بل في الحقيقة لا

وسيلة بها غيرها إلا بها ـ من لجوئه إلى الله ـ سبحانه ـ سائلًا له الهداية إلى أحسن الأخلاق ؛ فإنه مقلب قلوب العباد يقلبها كيف يشاء ، وهو آخذ بنواصيهم ، ليس يقدرون على شيء إلا به ـ سبحانه ـ ، وكذلك أن يصرف عنه سيّء الأخلاق ؛ فإنه لا يصرف عن العبد سيئها إلا هو ـ سبحانه ـ ، فهو الذي يلهم النفوس فُجُورها وتقواها ، فيجعل في هذه النفسِ الفجورَ ، وفي الأخرى التقوى ، ولهذا كان هذا الدعاء العظيم ، وهو مِثْلُ قول النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا »[1] .

وتزكية العبد لنفسه لن تثمر ثمرتها إلا أن يزكي الله نفسه ، فتزكيته ﷻ خير تزكية ، هو الولي والمولى سبحانه وبحمده .

وأنقل هنا ما كتبتُه في سورة يوسف في أحسن الأخلاق أخلاق الرسل ؛ تذكيرًا لنفسي وأهلي وبَنيَّ وأحبابي بها ، عسانا نجتهد في حسن الخلق ، ونسأل الله أن يهدينا إليه :

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

الصدق في القول والعمل مع الله ومع الناس ، وترك الكذب بالكلية ، والصبر واحتمال الأذى من الخلق والحلم عنهم ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى باللسان واليد والقلب ، وعدم الانتقام للنفس إلى أن تنتهك حرمات الله ـ تعالى ـ ، والأناة والتمهل وعدم الطيش والعجلة ، والعفة عن المحارم وعما في أيدي الناس وعن سؤالهم ، واجتناب القبائح والفواحش وهي الأفعال والكلمات الفاحشة الظاهرة السوء خاصة ما يتعلق بالعورات كالشتائم ونحوها ، وهذا بالقول وبالعمل ، وفي الأموال والأعراض ، كما كان يقول عبد الرحمن بن عوف في طوافه : « اللهم قني شُحَّ نفسي » ، ويقول : « إذا وقُيتُ شحَّ نفسي لم أسرق ولم أزنِ ولم أفعل » لأن كل ذلك عدمُ عفةٍ وتطلعٌ إلى ما في أيدي غيرك ، والحياء والكرم والجود والسخاء ، وترك البخل والغيبة والنميمة وخيانة الأعين وهو تطلعها إلى ما لا يحل خلسة ، والشجاعة ، وعزة النفس ، والبذل في الحق والتضحية والقوة في الحق ، والاستعداد لبذل المحبوب الغالي على النفس وإخراجه ومفارقته عند أمر الله بذلك ، والوفاء

بالعقود والعهود والأمانات للأهل والأصدقاء ، والبر والصلة ، والإحسان إلى الخلق ، والعدل والتوسط في شيم النفس بين الإفراط والتفريط .

فالجود وسط بين التبذير والبخل ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والحياء وسط بين الوقاحة والعجز ، والمهانة والخور ، والحلم وسط بين الغضب والمهانة والذل وسقوط النفس .

والتواضع والعزة المحمودة وسط بين الكبر والهوان ، والقناعة وسط بين الحرص والكَلَب والتنافس على الدنيا وبين الخسة والمهانة والتضييع وترك التنافس على المرتب السامية من طاعة الله ومرضاته ، والصبر وسط بين الجزع والهلع والتسخط وبين القسوة والغلظة وتحجر الطبع والفظاظة ، والرحمة وسط بين القسوة والضعف والجبن وترك أوامر الله التي أمر فيها بأن لا تأخذ العباد رأفة في دين الله ، وطلاقة الوجه والتبسم والبِشْر وسَطٌ بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد ، وإمالته تكبرًا وعُجْبًا وطي البِشْر عن البَشَرِ ؛ وبين الاسترسال في الضحك في كل موقف ومع كل أحد حتى

تزول الهيبة والوقار.

ومن الأخلاق الحسنة : الإيثار بالدنيا ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، وسرعة العفو والصفح وقبول المعذرة والمروءة في اللسان بحلاوة المنطق وطيبه ولينه ، والمروءة في الخلق بسعته وانشراح الصدر في معاملة الخلق ، وفي المال ببذله في مواقعه المحمودة شرعًا ، وفي الجاه ببذله للمحتاج إليه .

والقرب من الخلق بحيث يجدونه في أزماتهم ومشاكلهم ، يحمل الكَلَّ ، ويُكسب المعدوم ، وَيقري الضيف ، ويُعين على نوائب الحق ، ويحسن إلى الخادم والمملوك ، فضلًا عن الأهل والأقارب والجيران والمعاملين ، يجالس المساكين ، ويجيب الدعوة ولو إلى شيء يسير ، ويمشي مع الأرملة والمسكين واليتيم في حوائجهم ، يبدأ بالسلام من لقيه ، خفيف المؤنة على من صحبه ، لا يُكلف غيره مؤنته ، هينًا لينًا سهلًا ، يعود المريض ويشهد الجنازة ويرد السلام ويشمت العاطس ، وينصح السائل ، ويعطي من حرمه ويصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه .

لا يتكبر ولا يحسد ولا يتعالى على الخلق ، ولا يبغي ولا يفخر ، ولا يغش ولا يتبع الشهوات ، ولا يخاصم لنفسه ، ولا يعاتب أحدًا في حقها بل لله ﷻ ، ولا يماري ولا يجادل إلا بالتي هي أحسن ، ولا يستقصي حقه ، ويُغضي الطرف عن عيوب من أساء إليه فضلًا عمن سواه إلا لحق الله تعالى ، ويتغافل عن عثرات الأهل والأصحاب والناس مع إشعارهم أنه لا يعلم لهم عثرة .

يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأتي إلى الناس أفضل ما يحب أن يأتوه إليه ، ويُحسن عشرة كل من عاشره : من أم وأب وبنت وابن وأخت وأخ وقريب وجار وامرأة وصاحب ومملوك وكل من يعامله ، فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونلحظ هنا مدى الارتباط بين حقائق التوحيد والإيمان وبين مباديء الأخلاق والسلوك ، فالدعاء بدأ بتقرير التوحيد والثناء على الله بملكه وألوهيته وربوبيته ، ثم باعتراف العبد بعبوديته ، وهذا أفضل عمل يتوسل به مع معرفته بذنبه ثم

يدعو بمغفرة الذنوب والهداية لأحسن الأخلاق وصرف سيئها .

ولو واظب كل منا على هذا الدعاء يوميًا مع استحضار معانيه في قلبه ، وافتقر إلى الله الافتقار التام كما يتضمنه الدعاء ؛ لانحلت مشكلة من أكبر مشاكل الالتزام الحقيقي وهي مشكلة تخلف الأخلاق والسلوك عن الالتزام الظاهري في الهيئة ، أو الاكتفاء بمجرد إعلان الالتزام دون أن يتحول هذا الإعلان إلى تفاصيل يعيش بها المرء في حياته بدلًا من الأخلاق التي يعيش بها في جاهليته .

وهذه المسألة دالة بلا شك - عند وجودها - على نقص الإيمان ، فإن رسول الله ﷺ قال: « **أكملُ المؤمنين إيمانًا أحاسنُهم أخلاقًا** » فليس منهج أهل السنة قضايا فكرية يُحسن الإنسان صياغتها والرد على المخالفين فيها ، كما أن الالتزام بالسنة ليس مجرد شكل وهيئة يحافظ عليها الإنسان ، بل الإيمان قول وعمل ، عقيدة وسلوك ، وقد أدرك علماء الأمة مدى أهمية هذا الارتباط بين الإيمان والأخلاق ، فوضعوا مختصرات

عقائدهم مع أصول الإيمان ، الأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن مساويها ، فهم يرون وجوب بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران والمعاملين ، ويأمرون بالصدق والعفاف والأمانة ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتممها ، مما هو معلوم في مختصرات العقيدة ، ولنراجع على سبيل المثال لا الحصر « العقيدةَ الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ستجد الأمر واضحًا جليًا .

قول النبي ﷺ : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » هذه التلبية وهي تلبية من غير المحْرِم ، لا تختص بحال أو زمن أو مكان ، كنز عظيم يفجر في القلب ينابيع الحب والشوق إلى الله ـ سبحانه ـ ، فإن الإنسان الصغير الضعيف المحتاج الذي لا يشغل من الزمان والمكان شيئًا يذكر ، بل وجوده كالهباءة المنثورة ؛ إذا استشعر أن الله ـ سبحانه ـ هو الخالق العليّ الكبير العظيم الغني الأول الآخر الظاهر الباطن القوي العزيز يريده ويناديه – على ألسنة رسله وفي كتبه المنزلة – ، يريده لعبادته ومحبته ، واصطفاه من بين خلقه لنوع خاص من العبودية إذ أوجده في وسط المخالفات ليعرفه ويعبده ، فالعبد في

نفسه مخالفات : شهوات ورغبات محرمة ، وحوله مخالفات : شياطين الإنس والجن وأعمالهم ، ومكرهم وكيدهم ، وهو ـ سبحانه ـ اجتباه من ذلك ، واختصه بأعلى أنواع التكريم ، وأمره ونهاه ، ودعاه إليه في دار السلام ، وهداه الصراط المستقيم .

فأنت أيها المؤمن كنت مرادًا حتى تكون مريدًا مخلِصًا ، وأُخْلِصْتَ فَأَخْلِصتَ ، كنت قبل وجودك من أهل قبضة اليمين وعرفك الشيطان فاستثناك من الإغواء حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢] فأنت من المخلَصين حتى تكون من المخلِصين ، وربك يناديك .

فما أجلّ أن تقول ، وما أعظم أن تقول ، وما أحلى أن تقول : « لَبَّيْكَ » أنا يا رب ذاهب إليك ، مجيب لأمرك بقلبي وبدني ! ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : ٩٩] هل تحاول استشعار معنى ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ومعنى الهجرة بالقلب والسفر إليه في قول النبي ﷺ : « وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ »[(١)] ، « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ »[(١)] فلماذا كانت

(١) رواه البخاري (١٠) .

العبادة في الفتن تماثل ثواب الهجرة إليه ﷺ ؟ لأنها هجرة بالقلب إلى سنته وطريقته في عبادة الله ، فهل نلج وندخل باب هذا الفضل العظيم في زمان الفتن ؟ فرصة عظيمة ، أن نكون من المهاجرين ، فهل نغتنمها ؟ « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » .

وليست الإجابة لله ـ سبحانه ـ مرة واحدة ثم تنقطع ، بل هي إجابة بعد إجابة ، وإقامة بعد إقامة على طاعته ومساعدة بعد مساعدة لأمره ، والمقصود بالمساعدة الكونُ في أمره وخدمته ، وليست بمعنى المعاونة التي في حق البشر ، بل الإسعاد معناه : أن يكون في الخدمة والطاعة ، وإن كان لفظ الخدمة لم يرد في الكتاب والسنة ، فنختار عنه لفظ العبادة والطاعة والانقياد لأمره ـ سبحانه ـ مرة بعد مرة ، أي هو قد أعلن الإجابة وواظب عليها ، وأقر بالطاعة وامتثال الأمر وواظب على ذلك ، قال : آمنت بالله ثم استقام ، كما أخبر ـ سبحانه ـ عن عباده المؤمنين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨) .

عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، وكما قال النبي ﷺ : « قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ »[١] وهذه التلبية يحتاجها المؤمن دائمًا ، ولذا شرعت في هذا الدعاء كما شرعت في الحج والعمرة ، وقد قال الإمام أحمد : « لا بأس بالتلبية للحُلّال » وهذا الحديث دليل على مشروعية ذلك . وهي من الأذكار العظيمة التي تعرف العبد حقيقة السلعة التي معه ، روحه ونفسه ، فليضن بها أن يبيعها بالثمن البخس ، وشعور العبد بأن الله أراده يجعله يكاد يذوب حبًا وشوقًا لله سبحانه وانقيادًا وذلًا ، يجعله مجيبًا على الفاقة ، أي : مجيبًا لأمره ـ سبحانه ـ مستشعرًا شدة فقره وفاقته إلى الله في هذه الإجابة ، أي : يحقق إياك نعبد بالإجابة ، وإياك نستعين بالفاقة والفقر إلى الله إلهًا معبودًا محبوبًا ، فأي منة أجلّ من هذا ؟! وهل نستحق كل هذا العطاء ؟! إنما هو محض الجود والكرم والمن .

---

(١) رواه مسلم (٣٨) .

قال ابن القيم رحمه الله :

فما كُلُّ عينٍ بالحبيب قريرةٌ

ولا كلُّ مَنْ نُودِي يُجيبُ المناديا

قرة العين كناية عن الراحة والسرور والطمأنينة التامة وعدم التطلع إلى ما سوي المحبوب ، فليست كل العيون قريرة بالله ـ سبحانه ـ بل إنما خص ـ سبحانه ـ بذلك خواص خلقه الذين وجدوه – أي : وجدوا حبه وقربه والطريق الموصل إليه حتى تكون نهايته النظر إلى وجهه في الدار الآخرة ، فمن قرت عينه بالله إذا وجده فليحمد الله على أجلِّ نعمة ، ومن أجاب داعي الله ، فليدرك قدر هذه المنة ؛ فليس كل أحد يجيب المنادي والداعي إلى الله ، وأنت أيها المؤمن أجبت ، ووجدت وتلذذت بالعبادة وذقت طعم الإيمان ، فاللهم نسألك مزيد فضلك ورحمتك ، وحبك ورضوانك ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين .

ومَن لا يُجِبْ دَاعِي هُدِاكَ فَخَلِّهِ

يُجِبْ كُلَّ مَنْ أَضْحَى إِلى الغَيِّ داعِيًا

وقُلْ للعيونِ الرُّمْدِ : إياكِ أن ترَيْ
سَنا الشمسِ فاستغشِيْ ظلامَ اللّياليا
وسامِحْ نُفُوسًا لم يَهَبْها لَحُبِّهم
ودَعْها وما اختارتْ ولا تَكُ جَافيا
وقُلْ للذي قد غابَ : يَكفِي عُقوبةً
مَغِيبُكَ عن ذا الشأنِ لو كنتَ واعيا
ووالله لو أضْحَى نَصِيبُكَ وافرًا
رَحِمْتَ عَدُوًّا حاسِدًا لكَ قَالِيا
ألم تَرَ آثارَ القطيعةِ قدْ بَدَتْ
على حالِه ؟ فارحَمْه إن كنتَ راثِيا
خفافيشُ أعشاها النهارُ بضَوْئه
ولاءَمَها قِطْعٌ مِنَ الليلِ باديا
فجالَتْ وصالَتْ فيه حتى إذا النـ
ـهار بدا استَخْفَتْ وأعْطَتْ تَوارِيا
فيا مِحنةَ الحسناءِ تُهدَى إلى
امرىءٍ ضريرٍ وعنّينٍ مِنَ الوجدِ خاليا
إذا ظلمةُ الليلِ انْجَلَتْ بضيائِها
يعودُ لعينَيْه ظلامًا كما هيا

فَضُنَّ بها إذْ كنتَ تَعرِفُ قدرَها
إلى أن تَرَى كفْؤًا أتاكَ مُواتيًا
فما مَهْرُها شيءٌ سوى الروحِ أيها الـ
ـجبانُ تأخَّر لستَ كفْؤًا مُساوِيا
فكنْ أبدًا حيثُ استَقَلّتْ ركائِبُ
المحبةِ في ظَهرِ العزائمِ ساريا
وأَدْلِجْ ولاتخشَ الظلامَ فإنه
سيَكْفيك وجهُ الحِبِّ في الليلِ هادِيًا
وسُقْها بذِكْراه مطايَاك إنه
سيَكْفِي المطايا طيبُ ذِكرَاه حادِيا
وعِدْها بِرَوْحِ الوَصْلِ تُعْطِك سَيْرَها
فما شئتَ واستبقِ العِظامَ البواليا
وأقدِمَ فإما مُنْيَةٌ ، أو مَنِيَّةٌ
تُريحُكَ مِنْ عيشٍ به لستَ راضيا
فما ثَمَّ إلا الوصْلُ أَوْ كَلَفٌ بهم
وحسْبُك فوزًا ذاك إن كنتَ واعيا
أما سَئِمَتْ مِن عيشِها نفْسُ وَالِهٍ
تبيتُ بنارِ البُعدِ تَلْقَى المكاويا

أمـا موتُـه فـيهم حيـاةٌ ؟ وذُلُّـه
هـو العِـزُّ والتوفيـقُ مـا زالَ غاليـا
أما يَسْتَحِي مَن يَدَّعِي الحُبَّ باخلًا
بمـا لِحبيـبٍ عنـه يَـدْعُوه ذا لِيـا
أَمَا تلك دَعوى كاذبٍ ليس حظُّه
مِـنَ الحُـبِّ إلا قولُـه والأمانيـا

قوله رحمه الله :

ومَن لا يُجِبْ دَاعِي هُداكَ فَخَلِّهِ
يُجِبْ كُلَّ مَنْ أَضْحَى إلى الغَيِّ داعِيًا

يعني : أن من لا يستجيب لداعي الهدى الذي أنت عليه أيها المؤمن المحب فخَلِّه ، أي : اتركه ولا تنشغل به ؛ فإنها نوعية من البشر لا تصلح ، قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات :٥٤] فبعد تكرار البيان وتوضيح الدعوة إذا كان الإعراض وعدم الإجابة هو النتيجة ؛ فاعلم أن الله لا يريد به خيرًا ، فاتركه وانشغل بغيره ؛ لأن هذا الإنسان المريض بل الميت سوف يجيب كل داعٍ إلى سبل الغواية ويقبل الباطل ويحبه ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] .

وقُلْ للعيونِ الرُّمْدِ : إياكِ أن تَـرَيْ
سَنا الشمسِ فاستغشِيْ ظلامَ اللّيالِيا

يعني : أن من لم ير هذا الحق الذي هو أوضح من نور الشمس وهو دين الله الذي ابتعث به رسله فعينه هي المريضة بها رمد عين قلبه ، فلا يبصر الحقيقة ، فقل له على سبيل الاستخفاف به : أنت لا تصلح لرؤية نور الحق وإنما يناسبك الحجاب والغطاء والظلام مثل ظلمة الليالي :﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور : ٤٠] ومعنى استَغْشَيْ ، أي : تَغَطَّيْ بظلمة الليل الذي أنتِ فيه ، ليل الكفر والظلم والفسوق والعصيان والنفاق .

وسـامِحْ نُفُوسًـا لم يَهَبْهـا لَحُبِّهم
ودَعْهـا ومـا اختـارتُ ولا تَـكُ جَافيـا

قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[الجاثية : ١٤] فهذه المسامحة والصفح والعفو في الدنيا وعدم الانتقام من أصحاب النفوس التي لم يهبها الله من فضله ولم يهيئها لحبه ﷻ ـ لحبهم : الجمع هنا للتعظيم ـ واترك هذه النفوس وما اختارته من طرق الضلال والغي ؛ فإنهم مساكين ـ المسكنة المذمومة ـ هم في شقاء وعذاب ، فلا تكن جافيًا أي غليظًا عليهم فوق ما هم فيه من العذاب والنكد ، وليس المقصود عدم الغلظة في المعاملة التي أمر الله بها عند جهادهم : ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ﴿ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة :١٢٣] بل هذه الغلظة عليهم رحمة بهم في الحقيقة لعلهم يرجعون ، وإنما المقصود ـ والله أعلم ـ : لا تكن متمنيًا لهم الضلال والهلاك وتحدث نفسك بالانتقام منهم لنفسك عقوبة منهم على ما ظلموك ، يكفيهم عقوبة ما هم فيه من البعد عن الله .

وقُلْ للذي قد غابَ : يَكفِي عُقوبةً
مَغِيبُكَ عن ذا الشأنِ لو كنتَ واعيا

فلو لم يكن من عقاب للكفرة والظلمة الذين غابوا عن حب الله ومعرفته وعبادته بشهواتهم الوقتية المملوأة بالتعب والنقص لكفى بها عقوبة ، فمغيبهم عن هذا الشأن ـ شأنِ الإجابة لأمر الله والمحبة له ـ هو أشد عقاب ، وحجاب قلوبهم عن الله أقسى عذاب ، كما أن حجابهم عن الله يوم القيامة أشد عذابهم : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] لو كان الغائب هذا واعيًا عاقلًا لأدرك أنه في عقوبة ، ولكنه لا يدري ولا يعقل ولا يعي .

ووالله لو أضحَى نَصيبُكَ وافرًا
رَحِمْتَ عَدُوًّا حاسِدًا لكَ قَالِيا

أي : لو أصبح نصيبك ـ أيها المؤمن ـ من الإيمان والحب والعبودية لله وافرًا كبيرًا لرحمت أعداءك الحاسدين لك الكارهين (القالي : الكاره المبغض) الذين يؤذنوك ويحقدون عليك ، ورحمة الأعداء المؤذين للمؤمنين والشفقة عليهم لما هم فيه من الجهل ؛ سنّة ماضية عن الأنبياء وأتباعهم ، قال الخليل عليه السلام : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١) ».

وقال تعالى عن مؤمن آل ياسين: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]، هذا ما لم تمُتْ على الكفر أو يعلم نبيه بوحي أن هذا العدو يموت كافرًا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤] وذلك حين مات كافرًا.

وقال موسى وهارون عليهما السلام في دعوتهما على فرعون وجنده: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى عن نوح: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] فلا تعارض بحمد الله فالأَوْلى للمؤمن

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

ما دام عدوه حيًا أن لا يتمنى هلاكه على الكفر ، وأن لا يدعو عليه بذلك ، بل يرحمه لما هو فيه من العذاب ، عذاب الحسد لأهل الإيمان ، فإن الحسد قاتل لسعادة الإنسان وحياة قلبه مانع من الإيمان ، وعذاب كراهية الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ، وحب الباطل ، فإنه يقتضي كراهية العبد لنفسه ومقته لها إذ مقته الله ﷻ وأبغضه فأبغضه كل شيء حتى نفسه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [غافر : ١٠] .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ؛ دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، قَالَ : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ : إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ ، قَالَ : فَيُبْغِضُونَهُ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٧) ، وروى البخاري بعضه (٦٠٤٠) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩] ، وقال النبي ﷺ : « وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ » [(١)] ، فلو كان نصيبك ـ أيها المؤمن ـ من الإيمان وفيرًا كبيرًا لنظرت لمن آذاك في الله بعين الإشفاق إذ هو المحروم من أعظم نعيم الدنيا والآخرة ، شقي في الدارين ، وأنت مَنَّ الله عليك بأعظم عطاء ، فارحم من حسدك واعْفُ عمن ظلمك وصل من قطعك ، وأعط من حرمك ، فإنك بذلك آخذ أضعاف أضعاف ما أُعطيت .

ألم تَــرَ آثــارَ القطيعــةِ قــدْ بَــدَتْ

علـى حالِـه ؟ فارحَمْــه إن كنــتَ راثِيـا

ألا ترى أثار المعاصي والذنوب والكفر والنفاق والانقطاع عن الله ، عن أمره وإجابة داعيه والعمل بشرعه ، ظاهرة على وجوه الكفرة والظلمة والفسقة وعلى أحوالهم كلها ؟! ألا ترى كيف يقضون أوقاتهم في النكد والعذاب ، لا يجدون راحة إلا بغياب عقولهم بالسكر سكر الخمر

---

(١) رواه البخاري (٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) .

والمخدرات وسكر الشهوات حتى ينسوا ما هم فيه من البلاء ؟!

فارحمهم إن كنت ترثي لأحد وتتوجع على مُتَألِّمٍ جريح بل مقتول ، فأشفق عليهم ولا تتمنَّ مزيد عذابهم .

خفافيشُ أعشاها النهارُ بضَوْئه

ولاءَمَها قِطْعٌ مِنَ الليلِ باديا

هؤلاء الظلمة وأهل البدع والغي والضلال مثل الخفافيش التي يعميها ضوء النهار أي نور الوحي المنزل ، نور الإسلام والهدى إذا ظهر تألمت وعميت عيونها عن رؤيته ولا تحب النور ، هؤلاء والله منهم العلمانيون المنافقون الذين يكادون يموتون كمدًا حين يرون ظهور الإسلام وعودة الناس إليه ، واليهود والنصارى والمشركون وأذنابهم أعداء الدين لا يلائمهم ولا يناسبهم إلا فترات الظلام فترات غياب ظهور الشريعة في الأرض ولا يستريحون ولا يطمئنون - وما هم بمطمئنين أبدًا - إلا بذلك ، وهيهات لذلك فلا يزال الله يظهر الحق ويعلي الدين ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[الأنبياء : ٤٤] .

لاءمها : وافقها ، باديًا : ظاهرًا .

فجالَتْ وصالَتْ فيه حتى إذا النـ
ـهار بدا اسْتَخْفَتْ وأعْطَتْ تَوارِيا

هؤلاء المجرمون يجولون ويصولون ويمرحون بباطلهم في فترات انتصار الباطل المؤقت والذي قدره الله – وليس من صنعهم هم – امتحانًا لعباده المؤمنين ليعبدوه في فترة الإحراق قبل أن تأتي مدة الإشراق ، فكما أن الليل والنهار من خلق الله ؛ فالاستضعاف والتمكين ومداولة الأيام بين الناس هي من أفعاله ـ سبحانه ـ ، وإنما يصول أهل الكفر والظلم في الظلام ، يظنون أنهم هم الذين صنعوه ومنعوا ظهور الإسلام ، وليس والله في قدرتهم : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢- ٣٣] فسوف يطلع النهار وسوف يشرق النور – نور الدين الحق – ولو كره الكافرون ، وعند ذلك ستختفي الخفافيش وتتوارى وتسلم

بالاختفاء والتواري ، وإنما قدر الله ذلك ليعلم من يجيب في فترة الإظلام ويسير إليه ـ سبحانه ـ ، رغم الظُلمة والظَّلمة وإلا فعند ظهور نور الشمس يستيقظ كل الناس .

فيا مِحنةَ الحسناءِ تُهدَى إلى امرىءٍ ضريرٍ وعنِّينٍ مِنَ الوجدِ خاليا

إذا ظلمةُ الليلِ انْجَلَتْ بضيائِها يعودُ لعينَيْه ظلامًا كما هيا

يشبه رحمه الله مسألة المحبة إذا ألقيت على سمع مبتدع أو كافر أو منافق ، أو غارق في شهوات نفسه البهيمية والإبليسية ؛ بحسناء وضيئة زفت إلى رجل أعمى وعنين لا قدرة له على معاشرة النساء خالٍ من الحب ، ما أبغضه من شخص ؟! وما أسوأ معاملته للحسناء ؟! لا يمكن أن يعاشرها ولا أن يرى جمالها ، حتى إن جمالها ليذهب ظلمة الليل ، فجمال مسألة المحبة والعبودية لله يضيء ظلام ليل القلوب ، ولكن الأعمى لا يرى والعنِّين لا يعاشر والخالي من الحب لا يحب أحدًا فأنّى يَقبل هذه المسألة ؟! وكيف يجد لها طعمًا ؟! وكيف يفهم منها معنى أو يذوق لها حلاوة أو يرى قبسها ؟ فإنها ككتاب الله

لأنها منه ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة : ٧٩] فلو كلمت واحدًا من هؤلاء عن العبودية والحب وعن ـ لبيك وسعديك ـ عاد الضياء في عينيه ظلامًا وبقيت عيناه مظلمتين كما هما من قبل عرض هذه المسالة عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا تعرضها عليه ولا تحاول معه ما دامت وجدت إعراضًا .

فَضُنَّ بها إذْ كنتَ تَعرِفُ قدرَها
إلى أن تَرَى كفْؤًا أتاكَ مُواتِيًا

فابخل بهذا العلم عن غير أهله ، إن كنت تعرف قدره ، وليس معنى ذلك عدم عرضه على الخلق ابتداءً ، بل لابد من البيان ، ولكن إذا وجدت الإعراض والغفلة والعمى فابتعد حتى ترى من يصلح لهذا الشأن وعلمه هذا العلم وبينه له فهو الذي يقبله وهو كالكفؤ للحسناء أتاك مواتيًا : أي موافقًا على بذل مهر المحبة وهو التضحية والبذل للنفس والمال .

فما مَهْرُها شيءٌ سوى الروحِ أيها الـ
ـجبانُ تأخَّرْ لستَ كفْؤًا مُساوِيا

إذا أردت أن تكون محبًا محبوبًا فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فنفسك وروحك إذن إن كنت قبلت البيع ليست ملكًا لك فسلمها لمالكها يفعل بها ما

يشاء وهو قد وعدك أن يحفظها عليك ويردها عليك أوفر مما كانت ، أما من لا يريد البذل ولا التضحية ولا يريد أن يصاب في سبيل الله ؛ فهو الجبان عن البذل ، فليتأخر فليس أهلًا للمحبة ، ولا صالحًا لهذا البيع ، لست كفؤا لهذه المسالة العظيمة لا تصلح لها ، ولا تصلح لك ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

فكنْ أبدًا حيثُ اسْتَقَلّتْ ركائِبُ

المحبةِ في ظَهرِ العزائمِ ساريا

فكن أيها المؤمن حيث أمرك الله شرعًا أن تكون ، وافعل ما يحبه الله وما يقتضيه حبه من اتباع رسوله ﷺ ؛ فهذا الحب يحملك حملًا إلى المنازل العالية في أسرع وقت وفي أهنأ سفر وأكثره راحة بلا عناء ولا تعب ، وسر دائمًا بالعزيمة والإرادة الجازمة لوجه الله ، فالإرادة الصادقة منك له ـ سبحانه ـ على ظهرها تسير إلى بلاد الأفراح ، استقلت ، أي : سارت ، كن أبدًا ، أي : دائمًا .

وأَدْلِجْ ولاتخشَ الظلامَ فإنه
سيَكْفيك وجهُ الحِبِّ في الليلِ هاديًا

يقول : سر في الليل ، سر والناس نيام ، استجب لله وأكثر الخلق لم يستجيبوا بعد ، التزم بطاعته وأكثر الناس في غفلة عن ذلك نتيجة عدم ظهور الإسلام ونوره في بلاد الأرض ، ولا تخشَ الظلام ، ولا تخش من عدم وجود مرافقين في الظلام ، ولا تخش من انتشار الباطل وشبهاته وشهواته وسيطرته الزائفة فيكفي إرادتك لوجه الله الذي تحبه أعظم الحب هاديًا لك منيرًا لك الطريق وسط الشبهات والشهوات .

وسُقْها بذِكْراه مطايَاك إنه
سيَكْفِي المطايا طيبُ ذِكْرَاه حادِيا

وسق نفسك وقلبك رغم الظلمة والانفراد ووحشة الطريق ؛ بذكر الله ـ سبحانه ـ ، فإن ذكره ـ سبحانه ـ سيكفي قلبك مهونًا عليه عناء الطريق ووحشته بل مؤنسًا محببًا السير كالحادي للإبل بل أعظم بلا شك ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨]

وعِدْها بِرَوْحِ الوَصْلِ تُعْطِكَ سَيْرَها
فما شئتَ واستبقِ العِظامَ البواليا

وعد نفسك إذا تعبت من متاعب الطريق وأذى الأعداء ووحشة الانفراد بالرَوْح ، أي : الراحة التي تحصل لها عند الوصول إلى المحبوب وما يكون لها من أنواع الإكرام والإنعام في الجنة والفوز برضوان الله ـ تعالى ـ ، والنظر إلى وجهه ، فالرجاء من أعظم ما يعين العبد على تحمل المصائب والمشاق في طريق الدعوة والعمل لله ـ سبحانه ـ ، فسوف تعطيك النفس سيرها كما تشاء سوف تنطلق بأسرع سرعة ، واسبق الأموات ، أي من لم يعرفوا ربهم ، ولم يوحدوه ولم يحبوا أمره ، بل هم صاروا لطول موت قلوبهم كالعظام البالية .

وأقدِمَ فإما مُنْيَةٌ ، أو مَنِيَّةٌ
تُريحُكَ مِنْ عيشٍ به لستَ راضيا

أقدِمْ في طريق الدعوة إلى الله فإن لك أحدى الحسنيين : إما تحقيق ما تتمناه من النصر والتمكين ، فضلًا عما تجده من حب الله وحب الكائنات ، وذوق حلاوة الإيمان ؛ وإما موت في سبيل الله فهي الشهادة « منيّة » موتة تريحك من عيش الدنيا الذي لا

ترضى به ولا ترتاح فيها لا أنت ولا غيرك ، فلا راحة فيها لمؤمن ولا لكافر ، لا راحة فيها إلا في طاعة الله ومحبته وإجابة أمره .

فما ثَمَّ إلا الوصْلُ أَوْ كَلَفٌ بهم
وحسْبُكَ فوزًا ذاك إن كنتَ واعيا

فليس في الطريق إلى الله إلا أن تصل إليه إذا مت على الحق فقدمت على الله أو حييت على الحب والانشغال بأمره وهو الكَلَف ، أي : شدة الانشغال بحبه وطاعته ، وكفى بهذا فوزًا معجلًا في الدنيا لو كنت تدرك الحقيقة ، فليس ألذ وأهنأ من طعم الإيمان .

أما سَئِمَتْ مِن عيشِها نفْسُ وَالِهٍ
تبيتُ بنارِ البُعدِ تَلْقَى المكاويا

أما مللت العيش من أجل شهواتها فعيش النفس المتعلقة بالدنيا عيش كئيب مُمِلّ يلقى الإنسان فيه نار البعد عن الله ويكوى جسده بل قلبه بآلام المعاصي والذنوب التي تبعده عن الله ، وَالِهٍ هو المحب لشهوات الدنيا ، والنفس عندهم الصفات المذمومة في الإنسان .

أمــا موتُــه فــيهم حيــاةٌ ؟ وذُلُّــه

هــو العِــزُّ والتوفيــقُ مــا زالَ غاليــا

ترغيب في البذل بذل النفس في سبيل الله فإن الموت في سبيل الله هو الحياة (موته : موت العبد) فيهم : أي في سبيل الله والجمع للتعظيم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[آل عمران : ١٦٩-١٧٠] وذل العبد له هو العز بعينه ، وما إهانه الناس في سبيل الله واعتبروه ذلًا وصغارًا في أعينهم هو العز بعينه ، وعن قريب سوف يعلمون ، كما علمت امرأة العزيز أن سجن يوسف لم يكن صغارًا وذلًا بل كان ملكًا وعزًا ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، فكان ذلهم في أعين الناس لقتلهم ، وكانوا هم الأعزة بطاعة الله والجهاد في سبيله ، وأكثر الناس لا يعرفون هذه الحياة وهذا العز ، وإنما يوفق لفهم هذه الأمور القلة من الناس

والأفذاذ من العالم ، ولذا فالتوفيق الذي هو من الله هو أمر غال نادر لا يمنّ الله به إلا على من هو أهل له .

أما يَسْتَحِي مَن يَدَّعِي الحُبَّ باخلًا
بمـا لِحبيـبٍ عنـه يَـدْعُوه ذا لِيـا

ألا يستحي من يدعي حب الله وهو لا يريد أن يضحي من أجله بماله ونفسه وكل ما عنده ويبخل عنه به مع أنه في الحقيقة ملك له ليس لمدعي المحبة ، وهو يقول لك : هذا لي (١) اتركه ولا تنازع ، ومع ذلك تقول له : لا ، لا أريد أن أعطيك وتبخل عن من تحب بما يملكه ولا تملكه ، وهو يطلبه منك ولا تريد بذله ، وبعد ذلك تدعي المحبة ؟! أما تستحي من هذه الدعوى ؟!

أَمَا تلك دَعوى كاذبٍ ليس حظّه
مِـنَ الحُـبِّ إلا قولَـه والأمانيـا

---

(١) ويحتمل أن يعود الكلام « هذا لي » على مدعي المحبة أي : يقول لحبيبه هذا ليس لك هذا لي أفيكون هذا محبًا ؟! فأين التسليم ؟! فمن كان يرى لنفسه ملكًا لشيء من نفسه مع ربه فهو لم يُسَلِّم بعد ولم يحب بعد ولعل هذا أقرب .

فليس صادقًا في دعوى الحب من لم يبع لله ـ سبحانه ـ نفسه وماله ويفوض أمره إلى الله ويتوكل عليه ويسلم وجهه إليه ، وإنما نصيبه من الحب مجرد الكلام والتمني ، وليس له من حقيقة الحب نصيب ، فاللهم نسألك حبك وحب من أحبك ، والعمل الذي يبلغنا حبك ، واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد .

اللهم لك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا وإليك حاكمنا ، اللهم إنا نعوذ بعزتك ، لا اله إلا أنت أن تضلنا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون .

قول النبي ﷺ : « وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » .

إن إجابة العبد لربه وكونه في طاعته بقوله : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » تُقَرِّب العبد من ربه ، وهو ـ سبحانه ـ يتقرب إليه أضعاف ما يتقرب به العبد إليه ، كما في الحديث القدسي : « وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (١) .

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٨٧) .

فيحصل من هذا القرب المتزايد أن يحضر القلب بين يدي ربه فيشهد من صفات الكمال والجلال والعظمة ما لم يكن يشهده ويستحضره قبل ذلك ، ولا يزال العبد في مزيد من هذا الشهود المستلزم للحب العظيم ما دام في مزيد من الإجابة والإسعاد لأمر الله ـ سبحانه ـ فإذا شهد ذلك ؛ قال : « وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ » ويشهد فضل الله وإحسانه وحمده ، فأسماؤه كلها حسنى ، وصفاته كلها جلال وجمال وكمال ، وأفعاله كلها خير لا شر في شيء من ذلك قط ؛ فليس في أفعال الله شر قط ، وليس في مخلوقاته شر محض ، بل ما خلقه الله من الشر يجعل فيه خيرًا من وجه آخر إما لهذا المخلوق الذي اتصف بالشر أو قام به أو فعله إذا تاب ورجع وأناب إلى الله ، وإما لغيره من المخلوقين الذين يحصل لهم من أنواع الخيرات بسبب هذا الشر النسبي الذي وقع منه ما لا يحصيه إلا الله ، وذلك بمجاهدته ومخالفته وكراهيته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما يلقونه في ذلك والالتجاء إلى الله والتحصن به والتعوذ من شره وشهود فضل الله عليهم ومنته التي لم يوفق غيرهم لها ،

قال ـ تعالى ـ عن المؤمن : ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٦-٥٧] ، وغير ذلك من أنواع العبودية والخيرات التي لا يحصيها غير الله ـ سبحانه ـ مما يستوجب حمده والثناء عليه به حتى ممن يدخل النار يوم القيامة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

قال الحسن : « إن أهل النار دخلوا النار وإن حمد الله لفي قلوبهم لا يملكون غير ذلك » أي رغم ألمهم وعذابهم وشقائهم لا يملكون أن ينسبوا إلى الله النقص أو الظلم فيما فعل بهم ، بل لا يملكون إلا أن يقروا بأنه الحميد وأن له الحمد سبحانه وبحمده ، لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

وإن العبد المؤمن له أعظم نصيب ، حسَب إيمانه ويقينه ، وعلمه بالله من هذه الجملة الجملية العظيمة « والخير كله في يديك » ؛ إذ هو ينظر فيما فعل الله به وبغيره ويشهد فضله عليه في المنحة والمحنة ، والعطاء والمنع ، والعطية والبلية ، ونصيبه من الخير الذي يحصل له أعظم من نصيب غيره ؛ لأن أمره كله

خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، كما قال ﷺ متعجبًا ومعجبًا من أمر المؤمن ؛ فإنه والله لأمر عجيب يستحق التأمل والتدبر : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ـ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ـ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »(١) .

فالله ـ سبحانه ـ يجعل فيما يصيب المؤمن من الآلام والمشاق من أنواع اللذات والنعم ما لا يحصل له إلا بالألم وإن كان مكروهًا له ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ١٩] ، ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] فإذا شهد المؤمن ذلك رضي بالله ربًا مدبرًا معينًا وكيلًا يفوض إليه أمره كله ويرضى عنه في كل ما يفعله من حيث فعله ـ سبحانه ـ ، وإن كان لا يرضى بما لا يرضى به ـ سبحانه ـ من

---

(١) متفق عليه .

مخلوقاته ، فهو تابع لأمر ربه الشرعي في محبته وكراهته ورضاه وسخطه ، يرضيه ما يرضي ربه ويُسخطه ، ما يُسخطه ويُحب ما يحبه ويكره ما يكرهه .

أما عن فعل ربه فهو دائمًا حامد له شاهد فيه الخير والكمال والفضل ، راضٍ به على الدوام ، وهذه المسألة من أسباب السعادة المُعجَّلة في الدنيا قبل الفوز الأبدي بها في جواره ﷻ ، ومن أسباب محبته ـ سبحانه ـ وقرة العين بطاعته ﷻ .

نسأله ـ سبحانه ـ أن يرزقنا حبه والرضا به وعنه ﷻ .

وقوله ﷺ : « وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » أي لا يُنسَبُ إليه ﷻ وصفًا أو فعلًا أو اسمًا من أسمائه ، كما أنه لا يُتقرب به إليه ولا يرضى هو ﷻ به ، ولا يلزم من ذلك أن يكون الشر خارجًا عن مخلوقاته بل هو من خلقه بلا شك ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقال عن إبراهيم : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات : ٩٦] ، ولكن خلقه ـ سبحانه ـ للشر ليس بشر ، فهناك فرق بين الخلق الذي هو فعله ؛ والمخلوق ،

فالعباد فاعلون حقيقة لأفعالهم خيرها وشرها ، والله خالقهم وخالق أفعالهم وإراداتهم وقدراتهم ، وهو الذي جعلها سببًا لوقوع أفعالهم وقدّر ذلك ، ومن هنا كان وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ، فالشر الذي في القدر هو المقدر المخلوق ، فالله قدر وجود الخير وقدر وجود الشر ، فهذا معنى الإيمان بخير القدر وشره ، وأما فعل الله ﷻ فكله خير لا شر فيه البتة والحمد لله رب العالمين .

قوله ﷺ : « أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ »

فيه تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥]

فـ « أَنَا بِكَ » فيه معنى الافتقار التام إلى الله والاستعانة به ، فوجودي وخلقي بك يارب ، وحياتي وسمعي وبصري وقلبي بك يارب ، وكل قواي وإرادتي وبقائي ليس لي منه شيء يارب إنما كل ذلك بك وعبادتي وذكري وتوجهي إليك وركوعي وسجودي وصومي وصلاتي واهتدائي بك يارب ، و « بِكَ » فيه معنيان جليلان شريفان :

الأول : أنّ توجّهي إليك ، وجهي لك وحدك يارب ،

فهو معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، كما أن « أنا بك » فيه معنى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

الثاني : أن مرجعي ومآلي ومصيري إليك يارب العالمين ، ففيه تحقيق الإيمان باليوم الآخر ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٨١] وهذا من أعظم أسباب الإخلاص ، فعندما يتذكر الإنسان نهايته وأنه موقوف بين يدي ربه فردًا بلا حجاب ولا ترجمان ، وأن ما حوله من الناس من أهل وولد وأصحاب وغيرهم كلهم تاركه وحيدًا فردًا ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم : ٩٣-٩٥] ، فعندما يتذكر الإنسان ذلك يصغر الناس في قلبه وتصغر الدنيا فلا يعمل لهم ولا لها بل يجعل عمله لله وحده لا شريك له ، وهناك ارتباط وثيق بين المعنيين .

قوله ﷺ : « لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ » .

فيه تحقيق الامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم

مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] وهو مثل قول النبي ﷺ « اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » [(١)] ، وذلك أن العبد إنما يفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، ويدافع قدر الله المكروه بقدر الله المحبوب ، وذلك لله ـ سبحانه ـ ، فلا ملجأ يتحصن العبد به مما قد يقدره الله عليه من المكروه والسوء إلا إلى الله ـ سبحانه ـ ، ولا نجاة للعبد مما يخافه ويحذره ومما أصابه ووقع به من المكروه إلا إلى الله ـ سبحانه ـ ، فالعبد يفر « من الله » أي : مما يخافه من عقوبته وسخطه ومعاصيه التي هي أسباب العقوبة ؛ « إلى الله » أي بالاستقامة على أمره والعمل بطاعته والإخلاص له ، فإنه بذلك ينجو من سخط الله ـ تعالى ـ وعقابه ، وهو يعوذ بالله منه ـ سبحانه ـ إذ كل شيء ملك يده ، وكل شيء بقضائه وقدره ، فلا يملك العباد لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، فكيف يملكون لغيرهم ؟!

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

وهذا الدعاء يتضمن عدم رجاء الناس ولا خوفهم ، فإن ما أصابك - بقدر الله - ما كان ليخطئك ، وما أخطأك - مما لم يقدره الله لك - لم يكن ليصيبك ، ولو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بشيء ؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفُعت الأقلام وجفت الصحف .

وهذه الكلمة والتي قبلها : « إنا بك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » تنتظمان الإيمان بالقدر والامتثال بأيسر عبارة ، وأوضح معنى مفهوم ، تحل المشكلة التي حيَّرت البشرية البعيدة عن الوحي منذ أزمنة متطاولة في كيفية الجمع بين الأمرين ، فالقدر نؤمن به ، ونستعين بالله شاهدين قوته وقدرته وحكمه وحكمته وعدله وفضله ، نعمل به ونخضع له ونستسلم لأوامر الله الشرعية ، ونحن مستعينون به في ذلك ، راغبون في فضله ، راهبون من عقابه ، محبون له ، ولما يحبه ويرضاه ، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه .

قوله ﷺ : « تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ »

البركة : الخير الكثير ، فتبارك الله أي : كثر خيره ،

وعظمت صفاته ، وحسنت أسماؤه - سبحانه وبحمده - وهو بمعنى العلو ، علو الذات ؛ فهو فوق عرشه كيف شاء ـ سبحانه ـ ، وعرشه سقف لجميع مخلوقاته ، فهو ﷻ فوق خلقه جميعًا ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] ، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى :١] ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وعلو الشأن ؛ فهو ـ سبحانه ـ متعال في كل الصفات كماله عما يضادها من صفات النقص ، فتعالى في وحدانيته وإلهيته عما يشركون ، وتعالى في كمال أسمائه وصفاته عما يصفون - أي : المخالفون للرسل - .

وتعالى في كمال ربوبيته وقيوميته عن الظهير والمعين ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] .

وتعالى في كمال حياته عن السِّنَة والنوم والموت ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾

[الفرقان : ٥٨] ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وتعالى في كمال عدله عن الظلم ولو مثقال ذرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠] .

وتعالى في حكمته عن العبث واللعب والسُّدى واللهو ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٦] ، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] ، ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٧] ، أي : ما كنا فاعلين .

وتعالى في كمال قدرته عن العجز والإعياء والتعب واللغوب ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .

وتعالى في كمال علمه عن الجهل والنسيان وعزوب شيء عن علمه ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢]، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣] ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] ، ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وتعالى ـ سبحانه ـ في كل صفات الكمال عن أي صفة نقص سبحانه وبحمده ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وعلو القهر هو المعنى الثالث للعلو ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد : ١٦] قهر كل شيء ، وهو غالب على أمره ، لا يُنازَع ولا يُغالَب ولا يُمانَع ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، وكل من سواه مقهور تحت أمره ـ سبحانه ـ ، وإذا استشعر العبد ذلك

تصاغر الخلق في عينيه وقلبه ، وشعر بأن الأمر من فوق ، من عند الله لا من عند الناس ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] ، واستشعر أن المُلك يدبره مالكه الحق من فوق سبع سماوات ، وأن أعمال العباد - ومنهم هو - معروضة عليه سبحانه ، وهذا من أعظم أسباب الإخلاص والصدق مع الله ﷻ .

قوله ﷺ : « أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » .

ختم بهذا الدعاء العظيم الذي هو من معجزات النبي ﷺ الباهرة بلا شك ، يعجز الناس أن يأتوا بمثله أبدًا ، فكيف بالقرآن العظيم ؟! وقد تضمن أنواع الخير ومعاني الإيمان ، وجدد الإيمان في القلب ، ولم يبق إلا إزالة المعوقات ومحو العقبات ومباعدة الأسباب التي تحول بين القلب وبين الله وهي الذنوب والمعاصي ، فيكون هذا المحو والإزالة بالاستغفار ، وهو طلب المغفرة ، وهي الستر مع الوقاية من أثر الذنب ، والتوبة هي الإنابة والرجوع إلى الله بالعمل بطاعته ، نادمًا على معصيته ـ فـ « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » [1] كما قال النبي

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجه (٤٢٥٢) ، وصححه الألباني (٦٨٠٢) في « صحيح الجامع » .

ﷺ - عازمًا على أن لا يعود إلى المعصية ، مقلعًا عنها بالفعل ، مصاحبًا لأهل الصلاح في طاعتهم بقلبه وبدنه ، وإن عجز بالبدن فالقلب يكفيه ، قد بدل سيئاته حسنات ، فصار يعمل بها عوضًا عن السيئات ، فاللهم اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

إذا استحضر العبد هذه المعاني استعد قلبه أعظم استعداد للدخول في فاتحة الكتاب - بعد الاستعاذة من الشيطان الرجيم - فينهل من كنوزها ويناجي ربه بها ، فهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه النبي ﷺ ، وهي أم القرآن ، وهي الصلاة التي قسمها الله بينه وبين عبده ولعبده ما سأل .

أسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم وبسنة رسوله الكريم ﷺ ، وأن يجعل قرة عيوننا في الصلاة ، وأن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه ، والشوق إلى لقائه في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الرسالة الثانية

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل :

« اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، (وفي رواية: وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ) وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، (وفي رواية : وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ) ، وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ (وفي رواية : أنتَ ربُّنا وإليكَ المصيرُ) فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ (وفي رواية: وما أنتَ أعلمُ به مِنِّي) أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ ، (وفي رواية : أنتَ إِلَهِي) لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَلَا

إِلَهَ غَيْرُكَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ »[١] .

هذا الدعاء العظيم الذي هو معجزة من معجزات رسول الله ﷺ إذ كل جملة منه كنز من الكنوز لمن تأمله وتدبره ، يغيّر الإنسان إلى الأكمل ، وينقله من أحواله الأرضية إلى آفاق الهُدى والنور ، وما أحوجنا أن نتغير من الداخل – من داخلنا – في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها أمتنا في كل مكان ، وقد تكالب عليها الأحزاب ، واجتمعوا ـ رغم تفرقهم ـ على حربها ، وهموا بأخذ دعوة الحق ليجتثوها ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، والله آخذهم ومنزل بهم عقابه ، ولكن متي ؟ حين نتغير نحن من الداخل التغير الذي سيؤدي بالقطع إلى تغيير في الخارج في العمل والسلوك والأخلاق وطريقة التعامل مع الواقع من حولنا وفق شرع الله سبحانه .

أقول : هذا الدعاء الكنز – بل الكنوز – الذي يُغيّر الأعماق عند من جاهد ليدخله تلك الأعماق ، ولم يكتف بمجرد ترداد اللسان

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٧) ، ومسلم (٧٦٩) وغيرهما .

الذي قليلًا ما يُجدي أو هو يغير الخارج ولا يغير الداخل ، نحتاج إلى الوقوف مع جُمَلِهِ حقًا وعباراته التي إذا خرجت من القلب خرقت الحجب حقًا ، ومزقت الموانع حتَّى تصل إلى سدرة المنتهي .

« اللَّهُمَّ لَكَ الحُمْدُ » الاستفتاح بالتوسل إلى الله بالألوهية « اللَّهُمَّ » وتأمل أثر الميم المشددة التي أُضيفت إلى اسم « الله » فمع ضمة الشفتين وتقاربهما والتشديد يشعر العبد بحاجته الماسة إلى القرب من الله الحق ، وأن يأخذه الله إليه وهو يتوسل إليه بذلك شوقًا وحبًا ، وشكوًى له من ألم البعد وألم الأسر - الأسر في هذه الشهوات الأرضية والبعد عن الرفيق الأعلى - ومعاناة أمراض النفس ومعالجتها ومكابدة المداخل الشيطانية التي لا تفتر ، فهو كالغريق الذي يوشك أن يغرق إلا أن يأخذه مولاه و إلهه إليه .

« لَكَ الحُمْدُ » شهود للجمال والجلال والكمال في الذات والأسماء والصفات والأفعال الذي اختص الله به ، فهو الجميل حقًا ، الرحمن الرحيم الكريم المنان العظيم ذو الجلال والأكرام ، والجلال هو صفات الكمال كلها من كمال المجد

والقدرة والرحمة والحكمة والعدل والعزة والكبرياء ، ولأن الله وحده هو المنفرد بالكمال الحق قدم الجار والمجرور « لَكَ » على المبتدأ « الْحَمْدُ » ، فأصل الجملة « الحمد لك » لكن قدَّم الخبر للاختصاص ، فهو المستحق للحمد ـ سبحانه ـ وحده على الحقيقة ، ولا يُحمد أحد من خلقه - إذا حمدهم هو ﷻ كحمده سبحانه ، ثم في الحمد أيضًا شهود النعمة والإحسان والفضل العظيم : النعم الظاهرة والباطنة والنعم الدينية والدنيوية ، التي أعظمها نعمة توحيده والإيمان به والإسلام له ، وإجابة رسوله محمد ﷺ ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨] ، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة : ٣] ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

لا يدرك كلَّ واحدة من هذه المنن إلاَّ من ذاق طعمها إذا

سعى إلى طهارة قلبه ؛ فإن القرآن كما أنه في اللوح المحفوظ لا يمسه إلاَّ المطهرون ، فكذلك هو في الدنيا لا يمس معانيه العظيمة ولايتذوق حلاوة الإيمان بما فيه إلاَّ القلوب التي طهرها الله من أرجاس الشهوات والضلالات ، ثم يتذكر العبد نعمة الله عليه بالحياة والصحة والسمع والبصر والعقل واليد والرجل وسلامة الأعضاء التي كل واحدة منها في كل لحظة نعمة من أجلّ النعم ، نحن لا نملك منها شيئًا ولا نستطيع حفظها ، ولو كان الناس يحفظونها لما مرض مريض ولا مات ميت ولا تألم متألم ، فالعبد ربما وهو في سيره يتوقَّف جريان الدم في شريان صغير بجلطة صغيرة ، يضيع البصر أو تُشل اليد والرجل أو يخرس اللسان .

ما أشد ضعف الإنسان ! ، ويزداد شعوره بالضعف الشديد ، ويزداد ظهور هذا الضعف في آخر أيامه ، وتفكرْ : هل استطاع أحد أن يمنع هذا الضعف عن كل من مات من قبلنا ؟! فهل ندرك ـ إذن ـ قدر نعمة الله علينا بالحياة والسمع والبصر والحركة ؟! فنقول من قلوبنا : « **اللهم لك الحمد** » ثم

نتذكر نعمة الله علينا بالأهل والأولاد الذين نحبهم ، ألم نكن كلنا خالين من ذلك ثم وهبنا الله ذلك ؟! أين كانت علاقتنا بأهلينا قبل معرفتهم وقبل لقائهم ؟ أوْ قبل ذلك ، قبل أن يسمع بعضنا ببعض ، أين كانت هذه المشاعر الموجودة الآن ؟ كانت عدمًا ثم وُهبت لنا لنجد بها بَرْدَ الود في وسط حر هذه الحياة المليئة بالكراهية والحقد والحسد ؛ ولنجد رَوح الرحمة في وسط أجواء القسوة والغفلة .

أين كان الأولاد قبل ذلك ، ونحن نتضرع إلى الله أن يهبنا من لدنه ذرية طيبة ولا ندري من أي الأقسام نكون ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى : ٤٩- ٥٠] حين كنا ندعو وشبح أن نكون ممن قدَّر الله لهم عدم الولد يؤلمنا وتضيق به صدورنا ؟ ثم منَّ الله علينا بالأولاد ، جعلهم الله دعوات مستجابة وذرية طيبة إنه سميع الدعاء ، وأعاذهم من شرور أنفسهم وشر الشيطان وشركه وهداهم وجعلهم أتقياء وأَعفَّهم عن الحرام وأغناهم ، فوهب الله لنا بعد ذلك هبة هذه

المشاعر الحانية ، فالحنان هبة ونعمة من الله من آثار رحمته ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم : ١٢-١٣] أي وهبنا له في قلبه حنانًا عَطيَّة من عندنا ، فكان يحيي عليه السلام رحيمًا شفيقًا بالخلق ناصحًا لهم ، اللهم أني أشهدك أني أحبه حيًا عظيمًا .

وهناك من الخلق من نزع الله من قلبه الرحمة قال النبي ﷺ لأقرع بن حابس ، وقد قال له : أتقبّلون صبيانكم ؟ إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم . فقال له :« تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ » [١] ، كم نرى أناسًا قاسية قلوبهم ، غليظة طباعهم ، عديمة أحاسيسهم ، فيُعذّبون ، ويتعذب بهم من حولهم ، فهل تخرج من قلوبنا : « اللهم لك الحمد » ؟!

ثم لنتأمل نعمة الله علينا بالكفاية في المطعم والمشرب والملبس والعمل ، فلم يحوجنا لسؤال خلقه والذل لهم ،

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٨) ، ومسلم (٢٣١٧) .

اللهم كما صنت وجوهنا عن السجود لغيرك فصُنْها عن المسألة لغيرك ، ثم لنتذكر نعمة الله علينا بحب الناس ومودتهم وتقديرهم ، كم تُبذلُ أموالٌ وأوقات ودعايات لشيء من ذلك فلا يُنال ، إن أهل الدنيا يحلمون بشيء يسير من هذه النعم ، ومن أجل ذلك يُسخّرون الجنود والأعوان والألسنة والأقلام للمدح والثناء ، فلا يعود عليهم ذلك في قلوب الناس إلاَّ بغضب ومقت ، إذ مقتهم الله على كفرهم ومعاصيهم ، فوضع لهم البغضاء في الأرض ، فهل نقول من قلوبنا « **اللهم لك الحمد** » ؟!

وإذا تأملنا ما خفي عن حِسّنا من اللطف والبر والإحسان منه ﷻ من حبه ورحمته وفضله ، ومن حب ملائكته واستغفارهم ودعائهم ـ حتى الحيتان في البحر ـ لمعلم الناس الخير – اللهم اجعلنا منهم – ؛ لَذُبْنا شوقًا وحبًا وحمدًا له ، سبحانه وبحمده لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

« أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » هو ـ سبحانه ـ هادي أهل السماوات والأرض وجاعل النور فيهما وفي قلوب

من شاء من أهلها ، وجعله النور الحسي والمعنوي في السماوات والأرض هو أثر من آثار وصفه ﷻ بأنه النور الهادي ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال النبي ﷺ : « حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ (أي : أنوار) وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »[(١)] أي جميع الخلق ؛ لأن بصره يدرك جميع خلقه .

فإذا كان النور المخلوق حجابه الذي جعله ـ سبحانه ـ رحمة بعباده في هذه الدار ؛ إذ لو كشفه لاحترقوا جميعًا ، ولذا قال النبي ﷺ لما سُئل : هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ « أي : ليلة المعراج » فَقَالَ : « رَأَيْتُ نُورًا » ، وفي مسلم « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ؟ » أي نور حجبني ، فكيف أراه ؟![(٢)] ولقد زال الجبل واندكَّ لما تجلَّى له الرب ـ سبحانه ـ أدنى تجلٍ ، وخر موسى صعقًا ، كما قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ

(١) رواه مسلم (١٧٩) .

(٢) رواه مسلم(١٧٨) .

إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

ومن اللطائف الرائعة الجميلة في هذه الآية الكريمة أن موسى ﵇ بعد الأربعين ليلة من العبادة التي واعده ربه يصوم نهارها ويقوم ليلها ؛ حصل له من الشوق والحب ما لا تدركه قلوبنا ، ثم جاء ﵇ لميقات ربه وكلَّمه ربه فحصل له المزيد من هذا الشوق والحب الذي بالأولى نعجز عن إدراكه فضلًا عن وصفه ، ومن شدة هذا الحب والشوق بعد سماع كلام الرب ، قال لربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فكان الجواب ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ولما كان الجواب قد يُظن منه وحشة أزالها الله ببيان سبب عدم الرؤية في هذه الدار ؛ فليس المانع منها بعدًا من الله أو سخطًا أو عدم حب من الله سبحانه ، بل هو ﷻ يحبه ويدنيه ، وهو الذي اختاره وصنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، ولكن السبب هو عدم قدرة

موسى على تحمل نور التجلي الإلهي ، فقال ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ثم كان التأنيس بعد الصعق بذكر آلاء الاصطفاء والتكليم ، ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

والمقصود أن الأنوار التي جعلها وخلقها الله في السماوات والأرض وفي قلوب من شاء من أهلها هي أثر من آثار صفته ، وليست الأنوار المخلوقة صفته ﷻ بل كما قال ابن مسعود ﷺ : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » أي من آثار صفته ، وليست الأنوار المخلوقة صفته ﷻ ، كما أن الرحمة التي أنزلها الله في قلوب الخلائق بها تتراحم وبها ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ، هذه الرحمة المخلوقة ومعها التسعة والتسعون المدّخرة ليوم القيامة ؛ هي أثر من آثار اسمه الرحمن الرحيم ، وأثر من آثار الرحمة التي

هي صفته ﷻ ، لا يُدرك كنهها ولا يعقلون كيفيتها ، فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] ثم لنتأمل نعمته وحمده على خلق الظلمات وعلى خلق النور ، وله الحمد على هداية من هدى ، وجعل في قلبه النور ، وله الحمد على اضلال من أضلَّ وجعل في قلبه الظلمات ، ظلمات الضلالات الكاذبة والشهوات الحقيرة الفانية ، ولكل ضلالة وغواية ظلمة في القلب أكثر الخلق لا يشعرون بها إلا بوجود همٍ وكرب وشقاء لا يدرون من أين يأتيهم .

اللهم اجعل في قلوبنا نورًا وفي أبصارنا نورًا ، وفي أسماعنا نورًا ، وعن أيماننا نورًا ، وعن شمائلنا نورًا ، ومن أمامنا نورًا ، وسن خلفنا نورًا ، وفوقنا نورًا وتحتنا نورًا اللهم اجعل لنا نورًا ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

النور الذي يجعله الله في قلوب أوليائه به يبصرون حقائق

الوجود وملكوت السماوات والأرض يُدركون به حقيقة الأزل والأبد والغفوة بينهما - أعني هذه الحياة - ، فالله الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء ، كم هو قدْر ملايين الملايين بالنسبة إلى اللانهاية ؟ أليست صفرًا ؟ فكذلك هذه الغفوة - الحياة الدنيا - التي نصيبنا منها كم ؟ ونحن قد سبقنا آلاف الأجيال أو ملايينها ، لا ندري لكن بالقطع نصيب صغير صغير صغير جدًا أحقر من أن يُسمى شيئًا ، فنحن والله لا نساوي شيئًا زمانًا ولامكانًا ، فكم تبلغ أرضنا في الكون الفسيح ، وكم هو نصيبنا من هذه الأرض ، ونحن - لولا الله الذي أهّل قلوبنا لحبه ومعرفته - لعَدَم وأحقر من العدم ، فاللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن .

بالنور الذي يجعله ـ سبحانه ـ في قلوب المؤمنين يُبصرون حقائق الآخرة وبقاءها وخلودها ، وكأنهم ينظرون به الآن إلى أهل الجنة يتنعَّمون فيها ، وإلى أهل النار يتضاغون فيها ، وإلى الناس وقد قاموا حفاة عراة غرلًا كلهم بلا استثناء ، ووقفوا

في أرض المحشر التي قد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ، وقال الإنسان : مالها ، وإلى الحساب والميزان قد نصب ، والصراط على ظهر جهنَّم قد ضُرب أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وتحته النار تكاد تميز من الغيظ على الكفار والمنافقين والعصاة ، قعرها سبعون خريفًا ، ولذا كان في هذا الدعاء بعد ذكر الاستفتاح بالثناء على الله بأنه نور السماوات والأرض ومن فيهن الإقرار بالجنة والنار والساعة « **والجنة** حق والنار حق والساعة حق » .

وبالنور الذي يجعله الله ﷻ في قلوب المخلصين من عباده يُبصرون حقيقة الصراع الذي يجري على وجه الأرض وهم حلقة من حلقاته ودائرة من دوائره ، وهم يحمدون الله أن جعل دورهم نصرة لدينه ودعوة في سبيله ، وقد جعل غيرهم أعداءً لشرعه وجنودًا لعدوه ، فإذا رأوا حقيقة الصراع لم يغرَّهم تقلب الذين كفروا في البلاد ، ولم يُفزعهم قوة الباطل الزائفة وتسلطه المؤقت ومرحه في الظلام الذي ليس من صنعه ، بل هو خَلْق من خلق الله يوشك الله أن يزيله ويبطله

ويجعل محله النور ، فتُشرق الأرض بشمس الإسلام ، ويعمها نور الإيمان ، فاللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك ﷺ وعبادك المؤمنين .

« وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ »

« القيام والقيوم والقيم »- كما في رواية لمسلم في هذا الحديث - القائم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن خلقًا وإيجادًا ورزقًا وحفظًا وإبقاءً لهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر :٤١] ثم رقابة ومحاسبة وجزاءً وثوابًا وعقابًا ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[الرعد : ٣٣] ، واسم القيوم والقيام هو الاسم الجامع لصفات الأفعال أفعال الرب ـ سبحانه ـ فبكونه القيوم أقام السماوات والأرض ومن فيهن ، أمات وأحيا ، خفض ورفع ، أعطى ومنع ، أعزَّ وأذلَّ ، أسعد وأشقى ، وأضحك وأبكى ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، ابتدأ الخلق ثم يعيده ، مَلّكَ الملك من شاء بحكمته ، ونزعه ممن شاء بعدله ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في

الليل ، ويُخرج الحي من الميت ، ويُخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، فرج الكروب وغفر الذنوب وستر العيوب ، وفكَّ الأسرى ونصر المظلومين ، وعذَّب الطاغين ، نصر من شاء وخذل من شاء ، هدى من شاء وأضلَّ من شاء ، يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، فهذا الاسم جامع لكل أفعاله ـ سبحانه ـ وتأمُّله يستغرق العبد بالكلية .

وكما أن اسم الحي هو الجامع لصفات الذات ، واسم الله الدال على استحقاقه كل معاني الألوهية وإليه تصرف كل العبادات ؛ كانت هذه الأسماء الثلاث ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، من دعا الله بها أجابه ، ومن سأله بها أعطاه ، فهي الدالة على توحيد الألوهية ، والأسماء والصفات وتوحيد الربوبية على الترتيب ، والله أعلم .

« وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ »

وهذه في رواية لمسلم ، وهذا عطف عام على خاص ، والقيومية أحد معاني الربوبية ، فالرب هو الخالق الرازق

المدبر القائم بأمر خلقه ، وهو المالك لكل من سواه وما سواه ، وهو السيد الآمر الناهي المطاع ، وهو المدعو والمعبود ، فأثنى على الله بربوبيته بعد الثناء عليه بقيوميته ؛ ليشهد العبد باقي معاني الربوبية من الملك التام فيشهد به فقره ، وحاجته وعجزه وضعفه وفقر جميع الخلائق ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥-١٧] .

ويشهد كذلك مُلك ربه وأمره ، وأنه هو وحده الذي له الأمر والتشريع لخلقه ، لا شرع إلا ما شرعه ، وكل ما خالفه فهو باطل وزور ، فالحلال ما أحلَّه ، والحرام ما حرّم ، والدين ما شرعه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورى : ٢١] وهذا من رحمته بخلقه ، فإنهم حين ظنوا ـ ظلمًا منهم وعدوانًا وجهلًا وطغيانًا ـ أن من حقهم أن يشرعوا ما شاؤوا دون رجوع لأمر الله وشرعه سواء بملوكهم ورؤسائهم أو أحبارهم ورهبانهم أو أغلبيتهم واستفتاءاتهم ؛

شقوا أعظم الشقاء ، أشقوا أنفسهم وشعوبهم وأذاقوهم ألوان العذاب ، والعجب أنهم حريصون أشد الحرص على هذا العذاب ، وما ذاك إلّا لكون إبليس هو المخطط لهذه الجريمة وهو رأس هذا الطغيان ، ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ كان في ضمن الدعاء بعد ذلك « **وبك خاصمت وإليك حاكمت** » وستأتي إن شاء الله .

« وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ »

وهذا المعنى كما تقدَّم أحد معاني الربوبية ، وتأكيد ذكره مستقلًا بعد أن دخل في عموم « **رب السماوات والأرض** » لكي يستحضر العبد عظمة مُلك من يعمل له ، فلا يرضى لنفسه أن يعمل لملوك الأرض ، ويشهد أنه جندي للملك الحق ، وهو الذي اختاره لذلك إذ جعله عبدًا له عاملًا من أجله ، ساعيًا لنصرة شرعه ، مجاهدًا لإعلاء كلمته في الأرض – وهي العليا – فلا يرتضي العبد لنفسه بعد ذلك أن يكون جنديًا للباطل تابعًا له وهو يشهد كل يوم زوال ملوك الأرض ، أين ملك شاه إيران وصدام وأولادهما ؟!

ارجع بنظرك قليلًا أين ملك من سبق من الملوك والرؤساء ؟! أين ملك الفراعنة وعاد وثمود وتُبَّع ؟ أين أباطرة الرومان واليونان وغيرهم ؟!

لا تغتروا بمُلك زائل ، يُعذَّب أصحابه به وجنودهم معهم وهم في عز ملكهم ، فما الظن بعذابهم في ظلمة القبور ؟! فما الظن بعذابهم في حر يوم النشور ؟! ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٨-٩٩] ، وقال تعالى ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٧-٤٨] ، اللهم إنا نعوذ بك أن نركن إلى الذين ظلموا أو نكون من جندهم .

وإذا استحضر العبد أن الله ملك السماوات والأرض ومن فيهن ؛ لم يجزع من هزيمة أو ضعف أو كسرة للمسلمين

في زمن معين أو مكان معين - إن كان يؤلمه ذلك - لكن لا ييأس ولا يبتئس بما كان الظالمون يفعلون ، فإن الملك هو الذي أمر بذلك اختبارًا لجنده وتمحيصًا لهم ، ثم في لمح البصر تغير الموازين وتعدل الأوضاع ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران : ١٦٦] ، وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر ٥٠-٥١] ، وقال ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر : ٥١-٥٢] .

« أَنْتَ الْحَقُّ » أي : المتحقق وجوده ووحدانيته وأوليته قبل كل شيء وآخريته وبقاؤه بعد كل شيء ، وكل من سواه ﷻ كان عدمًا ويصير أيضًا إلى الهلاك ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وبقاؤه إنما هو بإبقاء الله له في هذه الحياة ويوم القيامة ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] ،

فبإذنه ـ سبحانه ـ خُلِّد من كتب الله له الخلود أو كتب عليه الخلود كالنار وأهلها والعياذ بالله منها ، وقد فطر الله العباد على الإقرار بوجوده ووحدانيته ، كما نصب لهم الأدلة والآيات في الآفاق وفي أنفسهم على ذلك ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [إبراهيم : ١٠] فليس في وجوده شك ، وليس في وحدانيته شك ، سبحانه وبحمده .

قوله ﷺ : « وَوَعْدُكَ حَقٌّ » يحتاج العبد إلى تأكيد هذه الحقيقة على قلبه يوميًا ، بل لحظِيًّا حتَّى لا تأخذه أمواج الفتن التي تغرق أكثر الخلق وتُلقيهم في بحار الغفلة والنسيان ، فوعد الله بإقامة الساعة وجمع الأولين والآخرين في يوم التلاق حق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] .

والغَرور هو الشيطان ، فالدنيا تُلهي الإنسان وتنسيه هذه الأوقات الخطيرة التي حتمًا هو مُقبل عليها ، والشيطان قاعد له على الصراط المستقيم يأتيه من بين يديه يُرغّب له الدنيا

ويُعلق قلبه بها ، أو نقول : يصطاد قلبه بشباكها حتَّى لا يعقل ، ومن خلفه يبعده عن الآخرة ، ويقول له : أيّان يوم القيامة .

ووعد الله في الدنيا بظهور الإسلام ومحق الكفر ونصر المسلمين وهزيمة الكافرين حق مهما كانت الأسباب المادية والظواهر الأرضية تدل على غير ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح : ٢٨] ،﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [التوبة : ٣٢-٣٣] ، فهو وعد في الكتب المنزلة من عند الله ، فالزبور اسم جنس للكتب التي تُزبر أي تُكتب ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي اللوح المحفوظ ، وهو وعد في اللوح المحفوظ ، وعد قدري وأمر شرعي بالعمل على ظهور الدين وإعلاء كلمة الله .

وما أحوجنا إلى تأكيد هذا المعنى في نفوسنا ونحن في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ الأمة وإن كان المتأمل للأحداث

الذي يتجاوز ساعته ويومه ، بل عمره إلى النظر إلى تغيرات الأمم والشعوب التي لا تقاس بالشهور ولا بالسنين ، بل بعشراتها وربما بمئاتها يلحظ بقوة تصاعد أهل الإسلام ونبع الخير في الأمة في كل مكان وفي وقت وجيز وبدون موافقة من بعضهم لبعض على ذلك ، فلو تأملنا حال أمة الإسلام وخلافتها تسقط وأرضها تُحتل من حوالي تسعين عامًا أو تزيد ؛ لقال الناظر : أمة تُحتَضَر وتنتهي كما انتهت أمم وحضارات من قبل : كالفراعنة والرومان واليونان وغيرهم ، ولكن نتأملها اليوم والعالم كله حرب عليها ، واجتمع عليها من بأقطار الأرض ، ورغم التفاوت الهائل في القوة المادية ، ورغم اجتماع المكر من أهله الذي تزول منه الجبال ، وهم يحاربونها على أنها التهديد الأول لهم ؛ إذا بها تزداد تمسكًا بدينها وبذلًا من أجله .

وإنما أعني بالأمة أهل الحياة فيها ، أهل الحياة والسلام والإحسان ، فهم الأمة ، وهم الطائفة الظاهرة المنصورة إلى قيام الساعة ، وهذا كله مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ

أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٤] ، فالأرض تنتقص من حول الكفار بظهور الإسلام في أرجائها ، فكيف يكونون غالبين ؟! هذا لا يكون ، بل هم المغلوبون المدحورون بإذن الله ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣١] يهدي عباده المؤمنين وينصرهم على من ناوأهم ، ولكن يبتليهم ليرى صدقهم وصبرهم وحبهم لربهم ولنبيهم ولدينهم فيحب ذلك منهم ويحبهم عليه ، ثم يجعل العاقبة ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٨-٩] .

وشعور الإنسان بأن وعد الله حق وأنه قد اقترب الوعد الحق ؛ يجعله يرى الكفرة والظلمة يلعبون فيما يحاولون إطفاء هذا الدين ومحاربة أهله ، فهم والله يلعبون ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٣]، وماذا

يصنع اللعب والخوض بالباطل أمام الحق واليقين ؟ وهذا يدفع المؤمن إلى أن لا يرضى بالباطل ولا يتابعه ولا يقبله ولا يتنازل عن شيء من الحق تحت ضغط قوَّة الباطل الزائفة الزائلة ، فيا رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون .

« وَقَوْلُكَ حَقٌّ » قوله ـ سبحانه ـ الكوني الذي يخلق به وتكون به الأشياء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] وقوله الشرعي المنزَّل على رسوله ﷺ بالأوامر والتشريعات ، فكلاهما حق ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام : ١١٥] فكلماته الكونية كلها صدق وحق ، وأمره واحدة أي مرة واحدة لا تحتاج إلى تكرار ليتحقق ما أراد ويكون ما يشاء ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] .

فالأوامر من عنده نازلة نافذة كما أمر ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

فاللهم فوضنا أمورنا كلها إليك وأنت بصير بالعباد ، فاقدر لنا الخير حيث كان ثم رضِّنا به ، كما أن كلماته الكونية كلها عدل لا ظلم فيها ، حتَّى ما يخلقه بها من الكفر والظلم ، فإن خلقه لها وإيجاده وفعله كله عدل وحكمة يستحق الحمد عليها ، فله الحمد على كل حال فخلقه للشر ليس بشر ، كما قال رسول الله ﷺ : « **والشر ليس إليك** » ، وخلقه للظلم والظلمة ليس بظلم منه ﷻ ، بل حكمة وعدل ، وإنما خلق الشر والظلم لحكمة بالغة ، منها أن تكتمل عبودية أهل ألإيمان والحق والعدل بالصبر والجهاد والتضحية والتوكل والإحسان وسط الفساد ، وبالطاعة وسط المعاصي ، وبالإيمان وسط الكفر ، فالله خلق الظلمة والكفرة لغيرهم ، خلقهم ليعبد المؤمنون ربهم من خلال معاملتهم ، فالحمد لله الذي خلقنا لعبادته ونسأله أن يتم نعمته علينا حتَّى نلقاه وهو راضٍ عنا ، ونعوذ بالله أن يجعلنا ممن هانوا عليه فأذلهم بمعصيته وجعلهم من سَقَطِ المتاع بل من جثِي جهنم جزاءً وفاقًا .

ثم لابد أن يزول الظلم ويعتدل الميزان وتُرد الحقوق إلى أهلها ، فيتم العدل في الجزاء ، قال النبي ﷺ « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » [1] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر : ١٧] وقال سبحانه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [يس : ٥٤] فيومئذ يفرح المظلوم أنه كان مظلومًا ولم يكن ظالمًا.

وكلماته الشرعية أيضًا تمت صدقًا في الإخبار عن الماضي والمستقبل ، وعدلًا في الأوامر والنواهي فلا عدل إلاَّ فيها ، وما خالفها من أراء الرجال وتشريعاتهم هي الظلم الذي تشقى به ملايين البشر مدة مقدرة من الزمن ، وتهلك به أجيال ، ثم يضمحل ويبحث الناس عن غيره ، فإما أن يرجعوا إلى شرع ربهم الحكم العدل ، وإما أن يشقوا بمخالفتهم مدة أخرى وهلاكًا آخر والعياذ بالله ، ولذا كان الذين يصدون الناس عن شرع الله هم أعداء البشر وجنودَ إبليس الدعاة على

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢) .

أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، ولذا كان أهل الإيمان خير الناس للناس وأرحمهم وأنصحهم لخلق الله ، رغم ما يلقونه من أذى وما يُعانون من اضطهاد وظلم .

« ولقاؤك حق » كم نحتاج إلى برد الرجاء للقاء الله في وسط حر هذه الدنيا ونصبها وتعبها ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت : ٥] ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، إن الصراع مع الباطل في الخارج ، وقرين لعين ، ونفس أمارة في الداخل ، وشهوات ورغبات وإرادات لابد من التحكم فيها وأمراض أرضية وإبليسية لا بد من التخلص منها ، ليس بالشيء الهين ، كيف لا يكون كذلك والناجي منه واحد من ألف ، والهالكون تسعمائة وتسعة وتسعون ؟! الله المستعان .

لا يهون هذا الصراع الداخلي والخارجي إلا باليقين بلقاء الله لحظة اللقاء التي يفرح فيها الحزين ويطمئن فيها الخائف

المفزوع ، ويسكن فيها المضطرب ، ويأنس فيها المستوحش من الدنيا وأهلها ، طالما كان المحب المشتاق كما دعا النبي ﷺ : « وأسالك لذَّة النَّظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة » .

وما أجمل ما قاله ابن القيم رحمه الله :

فَحَيَّهَلا إن كنتَ ذا هِمّةٍ فقدْ
حَدَا بك حادِي الشوقِ فَاطْوِ المراحِلا [١]

وقل لمنادي حبِّهم ورضاهُمُ
إذا مَا دعا : «لبيك» أَلْفًا كوامِلا [٢]

ولا تَنْظُرِ الأطلالَ من دونِهم فإنْ
نظرْتَ إلى الأطلالِ [٣] عُدْنَ حوائِلا

(١) أي : اطو مراحل السفر إلى الله ﷻ واقطعها ، والسفر إلى الله هو بالقلب وبالتوحيد والإيمان .

(٢) منادي حب الله ورضاه هو رسول الله ﷺ ، فقل له : لبيك ألف مرة كاملات .

(٣) الأطلال : المنازل المهجورة ، وهي الدنيا ، لأنها لابد مهجورة ، فإنك إذا أكثرت النظر إليها من نساء وبنين وقناطير مقنطرة ...» ؛ صارت حوائل تحول بينك وبين الوصول .

ولا تَنْتَظِرْ بالسير رِفْقَةَ قاعدٍ[1]
ودَعْهُ فإن الشوقَ يكفيكَ حاملا
وخذ مِنهمُ[2] زادًا إليهمْ وسِرْ علَى
طريقِ الهُدى والفقرِ تُصبحُ واصِلا
وأحيي بذِكراهم[3] سُراكَ إذا وَنَتْ
رِكابُكَ فالذكرى تعيدُكَ عامِلا

---

(١) لا تعلق سفر نفسك إلى الله على من حولك ، هل يلتزمون بالسير معك أم يقعدون ؟! لا تنتظر رفقة قاعدين عن السير ، بل يكفيك الشوق إلى الله يحملك في سيرك أسرع حمل .

(٢) خذ بالتوكل على الله والاستعانة به زادًا منه ـ سبحانه ـ للسير إليه ، فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بالسير إليه ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بأخذ الزاد منه إليه ، هو الذي يوصلك إلى مرضاته ، اللهم أعِنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وأنت تسير على طريق الهدى وهو الصراط المستقيم ، والدين القويم ، وبالافتقار إلى الله تصبح واصلًا إليه ـ سبحانه .

(٣) أحيِ بذكر الله سيرك بالليل وقد رقد الناس عن السير إلى الله ، أي أنت سائر في فترة الظلام حين يكون أكثر الناس في غفلة عن الالتزام بالطاعة ، فربما يتوانى الإنسان وتتأخر نفسه التي يسير بها وقلبه ، فذكر الله يحي عليه هذا الليل المظلم ويرده نشيطا عاملًا بالطاعة .

وإمّا تخافَنَّ الكلالَ [١] فقلْ لها :

أمامَكِ وِرْدُ الوصلِ فابْغِ المنَاهِلا

وخُذْ قَبَسًا مِن نورِهم ثم سِرْ به

فَنُورُهُمُ يهْدِيكَ ليسَ المشاعِلا [٢]

وحَيَّ على وادي الأراكِ فقلْ به

عساك تراهُمْ فيه إن كنتَ قائلاً [٣]

وإلاَّ ففي نُعْمانَ [٤] عند مُعَرَّفِ

الأحبةِ فاطْلُبْهم إذا كنت سائلاً

---

(١) إذا خفت على النفس من التعب في الطريق ، فقل لها : يا نفس عن قريب تردين على الماء الذي تسقين به ظمأك ، وهو حصول الصلة والقرب بينك وبين الله ، فابتغي يا نفس المناهل العذاب الجملية .

(٢) في ظلام هذه الضلالات والفتن التي فيها الناس ؛ اسأل الله نورًا يجعله في قلبك ، ثم سر بهذا النور وهو نور الوحي المنزل ، فالنور الذي يقذفه الله في قلبك من الإيمان بالوحي هو الهداية الحقيقة في هذه الظلمات ، وليس يصلح في مثل هذا السفر مشاعل من عند نفسك التي هي العلوم والأعمال التي لم تكن موافقة لنور الوحي ، فمن نفسك لا تصل ، وبها لا تهتدي ، ولكن بالله تهتدي وبنور وحيه تقتدي .

(٣) يذكر ابن القيم رحمه الله أماكن المشاعر التي عسى أن يجد العبد في التعب فيها طريقه إلى الله ، ووادي الأراك مكة والله أعلم ، والقيلولة الراحة من عناء الظهيرة ، ففي الحج والعمرة راحة من عناء السفر .

(٤) ونعمان : هي عرفة .

وإلاَّ ففــي جمــعٍ بليلتِــه فــإن
نفتْ فمتى ؟ ياويح من كان غافلاً [١]
وحَـيَّ علـى جنـاتِ عَـدْنٍ بقُـرْبِهِمْ
منازلُـكَ الأولى بهـا كنـت نـازلاً [٢]
ولكـن سَبَاك الكاشِحون لأجـل ذا
وقَفْـتَ علـى الأطـلالِ تَبْكـي المنـازلا [٣]
فـدعْها رُسُـومًا دارسـاتٍ فمـا بهـا
مَقِيـلٌ ، فجاوِزْهـا فليسـتَ منـازِلا [٤]

---

(١) وجمع : هي مزدلفة ، فإذا فاتك أن تجد قلبك وحب الله والشوق إليه أثناء هذه المناسك والعبادات ، فمتى سوف تجده إذن ؟ يا ويح من كان غافلًا ، نسأل الله العمرة و الحج إلى بيته العام وكل عام ، وأجر ما فاتنا رغم شوقنا الذي يعلمه علام الغيوب ، وفي قوله : «عساك تراهم » الرؤية هنا بمعنى العلم ، أي تعرف ربك وليست على ظاهرها ، فإن العباد لا يرون ربهم بأبصارهم حتَّى يموتوا ، والرؤية بالقلب خصوصية لرسول الله ﷺ .

(٢) أي هيَّا إلى جنات عدن ، جنات الإقامة بقرب الله ـ سبحانه ـ ، فإنها وطننا الأول ، كنا نازلين فيه في ظهر أبينا آدم .

(٣) قبل أن يسبينا الحاقدون الحاسدون « الكاشحون » إبليس وجنده ، فمن أجل أن صرنا في هذه الأرض وقف على أطلال الدنيا يبكي على ما فاته منها ، وإلا فلو كان حرًّا غير أسير لما وقف على هذه الأطلال الخربة المهجورة ولا بكى على شيء فاته منها .

(٤) دع الدنيا أشكالًا وهيئات خارجية « دارسات » أي مضمحلة قديمة متهالكة ،
=

رسومٌ عفَتْ يَفْنَى بها الخلقُ ، كم بها
قتيلٌ وكم فيها لذا الخلقِ قاتلا[١]
وخُذْ يَمنَةً عنها على المنهَج الذي
عليه سَرَى وفدُ المحبَّة آهِلا[٢]
وقلْ ساعِدِي يا نفسُ بالصبرِ ساعةً
فعند اللّقا ذا الكَدُّ يُصْبحُ زائلا[٣]

دَرَسَ الثوبُ أي : أصبح باليًا قديمًا ، فما بالدنيا من راحة من حر السير ، فجاوز الدنيا فلا تصلح منزلًا تأوي إليه .

(١) الدنيا رسوم زائلة خراب يهلك فيها من سكن من الخلق ، وهي تقتلهم وفيها قتلة كثيرون من شياطين الأنس والجن يقتلون قلوب الخلق ويُميتون الإيمان فيها ، فانظر حولك ، تُرى كم من الناس الذين يمشون على الأرض وهم أموات غرقى في الشبهات والضلالات والشهوات ، وكم في الدنيا من قتلة لهذا الخلق ، نسأل الله الحياة والنور .

(٢) سر بعيدًا عن الدنيا ذات اليمين على طريق أهل اليمين ومنهج الحق الذي عليه سار قبلك أيضًا ـ في الظُلْمة قبل أن يسطع النور ـ وفدُ المحبين ، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون الذين أحبوا الله فساروا إليه وتركوا الدنيا ، وهو طريق آهل مملوء بالسائرين ، لا تخف من الوحدة والانفراد حتّى ولو لم تجد أحدًا من أهل الأرض معك فيكفيك أنه آهل بالسائرين السابقين .

(٣) وقل لنفسك : ساعديني بالصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما يصيبك ساعة هي الدنيا ومدتها ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

=

فمـا هـي إلا سـاعةٌ ثـم تَنْقَضِـي
ويُصبحُ ذو الأحزانِ فَرْحَانَ جازِلا [(١)]

وقوله ﷺ : « وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ » قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] ، أي ساع إلى الله إما بالخير وإما بالشر ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي » [(٢)] .

والآية والحديث يدلان على أن لقاء الله حق للمؤمن والكافر ، فأما المؤمن فكما سبق يشتاق إلى لقاء الله في الدنيا ، ثم عند الاحتضار يحب لقاء الله فيُحب الله لقاءه ، فهي لحظة

بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٤٥] فعند لقاء الله سوف يزول هذا التعب .

(١) إذا انتهت ساعة الدنيا يصبح كل حزين فرحان سعيدًا بما أعطاه الله عند لقائه ، ولقاء الله إذا سلم من الموانع يستلزم رؤيته ﷻ فهي أعظم نعيم الجنة ، نسأل الله الجنة والزيادة .

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٨) .

ينتظرها عمره وبرزخه ، وأما الكافر والمنافق فيلقاه لقاء العبد الآبق لسيده الغاضب عليه - نعوذ بالله من سخطه وعقابه - وهو يكره لقاء الله ويكره الله لقاءه كما في الصحيح مرفوعًا « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ »[1] .

ثم بعد اللقاء المكروه يُحْجَب عن الله حجابًا أبديًا ، ويُنسى أي : يُترك في العذاب نسيانًا سرمديًا غياثًا بالله من ذلك ، فما تُغني الدنيا بأسرها لو حصلت لهذا العبد الشقي التعيس في مقابلة هذا اللقاء المكروه وما بعده ، وهي لا تحصل له ولا لغيره ، بل لذاتها مشوبة بالآلام ونعيمها مصحوب بالشقاء المكتوب على كل من سكن الأرض وخرج من الجنة ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] ، وراحتها مقرونة بالتعب قبلها وبعدها ، اللهم إنا نعوذ بك أن تغرنا الحياة الدنيا ونعوذ بك أن يغرنا بك الغرور .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (١٥٧) .

وقوله ﷺ « وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ » فيه إحياء لقلب الإنسان من موت الإعراض عن الآخرة ، وإيقاظ له من نوم الغفلة عن المصير المحتوم إما جنة أبدًا وإما نار أبدًا ، فعن أبي سعيد قال : « قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ . قَالَ : فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ . قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ ، قَالَ : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ ، قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] وفي رواية البخاري: وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)] .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٤) ، ومسلم (٢٨٥٠) .

فإذا استحضر العبد أن الجنة حق ، وتذكر كيف يَنْعَم أهلها برضوان الله الذي لا سخط بعده أبدًا ، وبقربه الذي لا بعد بعده أبدًا ، وبالنظر إلى وجهه وسماع كلامه وسلامه ، وكيف يتنعمون بالأمن التام والرفقة العظيمة رفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وسلام الملائكة وثنائهم ، وكيف يتنعمون بطعامهم وشرابهم ولباسهم وفرشهم وأزواجهم هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾

وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ١٧-٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٩-٧٣] .

والقرآن مليء بوصف الجنة والترغيب فيها مما يُزَهِّد في نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم يتذكر العبد عذاب أهل النار في النار بالحجاب عن الله ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] ، والطرد والإبعاد واللعنة ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٤-٤٥] وبالحسرة والندامة التي لا تنتهي بل تزيد ، وبصحبة خبيثة في الأصفاد والأغلال مع الشياطين مقرنين يُعذبون بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومهادهم وفرشهم وغطائهم حتَّى النَّفَس

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٦-١٠٧] ، اللهم بيدك ملكوت كل شيء وأنت تجير ولا يُجار عليك ، فاكتب لنا ولوالدينا وأهلينا وذرياتنا وأحبابنا والمؤمنين والمؤمنات جوارًا من النار .

وقوله ﷺ « وَالسَّاعَةُ حَقٌّ » يتذكر العبد به قيام الناس من قبورهم حفاة عراة غرلًا « أي : غير مختونين » اجتمع الأولون والآخرون والسماء منشقة والأرض متزلزلة والجبال قد فُتت فتًا فكانت هباءً « أي : غبارًا » ، منبثًا « أي : منتشرًا » والفزع والرعب الهائل يعم الخلائق إلا من رحم الله ، وخوف الأنبياء من غضب ربهم الذي لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ؛ جعل كلًا منهم يقول : نفسي نفسي إلاَّ محمدًا ﷺ .

ويتذكر الميزان والصراط المضروب على جهنم أدق من الشعرة وأحد السيف ، ويتذكر تطاير الصحف والحساب والعطش والحوض المورود للنبي ﷺ ، وردّ أناس من الأمة

عنه ، ويتذكر القصاص وردَّ الحقوق إلى أهلها وفرار المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، ووُدَّ الكافر لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تُؤيه ومن في الأرض جميعًا ثم يُنجيه .

ويتذكر حر الشمس الدانية من الرؤوس قدر ميل والعرق الشديد الذي يصل إلى الكعبين أو الركبتين أو الحقوين أو المنكبين أو يُلجم العبد إلجامًا أو يغطيه من فوق رأسه ، ويتذكر طول القيام لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ويتذكر أصناف المؤمنين في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله وأنه يهون الله عليهم يوم القيامة حتَّى كأنه نصف يوم ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ [الفرقان : ٢٤]

ويتذكر مجيء الرب لفصل القضاء ونزول ملائكة السماوات ، ومجيء الملائكة بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، ويتذكر حشر الكفار على وجوههم في هذا الكرب الهائل عُميًا وبكمًا وصمًا مأواهم

جهنم كلما خَبَتْ زادهم الله سعيرًا ، والله المستعان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقوله ﷺ « وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ » يتذكر المرء به صدقهم فيما أخبروا به عن الله وصدق رسالتهم ونبوتهم ، ويتذكر صفاتهم الجميلة ومواقفهم العظيمة في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والتضحية والبذل والصبر والشكر ومقامات العبادات كلها ، وكيف أحبوا الله أعظم الحب وأحبهم ـ سبحانه ـ ، فيثمر ذلك في القلب ـ ولا بد ـ حبَّهم وتوقيرهم ، وخصوصًا أولي العزم منهم محمدًا ﷺ ونوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة السلام ، ثم يستحضر أن صفات كمالهم قد جمعها الله ـ سبحانه ـ في محمد ﷺ ، فجعله المثل الأعلى للإنسانية كلها ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره ، وفتح له الفتح المبين ، وغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ، وأتمَّ نعمته عليه ، وهداه صراطًا مستقيمًا ، ونصره نصرًا عزيزًا ، وجعله على خلق عظيم ، فيقول عند ذلك : « ومحمد ﷺ حق » فرسالته إلى الثقلين الإنس والجن حق ،

وطاعته المفترضة على جميع أهل الأرض وتصديقه ومتابعته حق ، لا يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلًا إذا سمع به إلا بذلك ، ولو كان موسى عليه السلام حيًا لاتّبعه ، وحين ينزل عيسى عليه السلام يكون إماما عدلًا لأمّته يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .

أسأل الله أن يرزقنا مرافقته ومرافقة جميع النبيين في البرزخ وفي القيامة وفي الجنة نحن وجميع أهلينا وأحبابنا والمؤمنين والمؤمنات .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ »

يشمل معنيين أساسين ينبغي للداعي أو المصلي أن يستحضرهما :

المعني الأول : الإسلام لأمره الشرعي المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٦] ، وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : ١٠٣] ،

فهذا معنى الانقياد والطاعة المطلقة الكاملة ، فلا يرى العبد لنفسه في نفسه وماله ولا أهله حقًا ولا أمرًا إلاَّ ما أذن الله له فيه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، فلا يعارض شرع الله بشبهة عقلية أو شهوة دنيوية ، أو ذوق وجداني أو رأي قياسيّ ، أو توهم مصلحة في سياسة الناس ، فيستسلم لأمر الله بالرضا دون منازعة ولا حرج ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] وهذا هو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعًا وجعل الله هذه الكلمة « الإسلام » علَمًا عليه ورضيه لعباده ولم يرض لهم سواه ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، ولا يثبت أصل هذا الدين إلا بالإذعان والتسليم لله رب العالمين .

والمعني الثاني : هو الاستسلام للحكم الكوني القدري الذي لا قدرة للعبد فيه ولا إرادة ، ولا قدرة له على أخذ شيء من أسباب دفع السوء الذي قد يُقدَّر فيه أو جلب النفع الذي قد يقدر فواته كذلك ، وهذا كمرض لا شفاء منه ، وموت حبيب ، وغياب قريب ، وإذا كان له قدرة على أخذ شيء من الأسباب أخذ منها ما حل وترك ما حرم ، مع كونه معتمدًا بقلبه على ربه مفوضًا أمره إليه مستيقنًا بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر إلاَّ ما شاء الله ، فهذا لا يُنافي التسليم لأمر الله ، بل هو ضمنه وجزء حقيقته ، وهذا مثل الحكم الكوني بالجوع فيُدفع بقدر الله بالأكل ، مستحضرًا أن الله الذي رزقه إياه ، ويدفع قدر الله بالعطش بقدر الله بالشرب ، ويدفع قدر الله بالمرض بقدر الله بالتداوي ، وكل ذلك فيما يحل ، ويفر من قدر الله إلى قدر الله ، ويدفع القدر بالقدر .

والمشكلة الحقيقة لدى أكثر الناس في هذا النوع هو حال القلب وتعلقه بالأسباب ، فوجود الأسباب غالبًا ما يدفع الإنسان للوثوق بها ، فيطمئن عند وجودها ويضطرب عند

فقدها ، فهذا ينافي كمال التسليم الذي يدل عليه قوله ﷺ : « **اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ** » .

وأما النوع الأول أعني الذي لا قدرة للعبد فيه ولا أسباب ؛ فمشكلة أكثر الناس عنده الجزع والضيق والسخط ، ثم التشكي لغير الله من قدر الله وإن لم يسمِّ المشكو منه صراحة ، ثم استعمال الجوارح في التعبير عن هذا السخط ، وتلك الشكوى كضرب الخدود وشق الجيوب والتلهي بالمعاصي لينسى ضيقه بالمصيبة أو حزنه على فوات المرغوب . والمسلِّم قد انتهى من ذلك كله ، واستحضر أنه مملوك لربه وسيده وأن نفسه وماله وأهله قد سلمها له يفعل بها ما يريد ، وما أعظم فقه أم سليم وهي تقول لأبي طلحة عن ابنها الذي مات : « **يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ ؟ قَالَ : « لَا » . قَالَتْ : « فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ** » [1] .

---

(١) رواه مسلم (٢١٤٤) .

بقى نوع ثالث من الحكم الكوني القدري وهو الذي للعبد فيه قدرة وإرادة ، وهو متعلق بأفعال العباد الاختيارية من الطاعة والمعصية ، فتأكُّدُ الأخذ بالأسباب التي هي هنا العمل بالطاعة والتوبة من المعصية ، مع استحضار أن ذلك بتوفيق الله وإعانته وهدايته ؛ أعظم من تأكُّدِ أخذ الأسباب في الطعام والشراب والدواء ، ولا تنقسم الأسباب هنا إلى مشروعة وغير مشروعة ، بل في الجملة الأخذ بها أصل دين الإسلام وحقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] وترك الأخذ بأسباب الطاعة والتوبة من المعصية بزعم الاستسلام لله زندقه ونفاق وطعن في الشرع والرسالة والنبوات ، بل والتوحيد والمعرفة بالله ﷻ في حقيقة الأمر ، وعدم التوكل على الله فيها أو شهود أنها من العبد وبه ؛ طعن في القدر وصفات الرب من العلم والقدرة والإرادة ، فهو طعن في التوحيد كذلك ، وهدم لنظامه والعياذ بالله .

والحقيقة أن المذاهب المنحرفة في هذا الباب هي شبهات عقلية سخيفة لا يُمكن أن تخرج من قلب حي مستنير ، وإنما

ذكرتها هنا حتَّى لا ينزلق العقل إليها ، وإلاَّ فالإيمان يلفظ هذه الأفكار والوساوس، وإنما على العبد أن يركز حين يقول « **اللهم لك أسلمت** » على معنى الاستسلام للأوامر الشرعية والاستسلام للأحكام الكونية التي لا قدرة له عليها ، فحال القلوب في هذه المسألة هو المحك والمنزلق وموضع الزيادة والنقص ، والله المستعان .

فائدة : تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل يفيد الاختصاص والاهتمام .

قوله ﷺ : « **وَبِكَ آمَنْتُ** » فيه استحضار حقيقة الإيمان التي أصلها التصديق والتعظيم والحب والانقياد وباقي أعمال القلوب ؛ والإيمان هنا هو الحقيقة الباطنة بدليل اقترانه بالإسلام وهما معًا جناحا الدين .

« **وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ** » ما أحوج العبد إلى استحضاره الدائم لهاتين القضيتين ، فالجملة الأولى « **عليك توكلت** » هي حقيقة ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والثانية « **إليك أنبت** » حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، فالأولى منبعها من الافتقار

التام إلى الله ـ سبحانه ـ وشعور العبد بالعجز والضعف والانكسار والحاجة ، بل الضرورة التامة إلى ربه في كل شأنه ، وخاصة في عبادته والإنابة إليه ، وهي الرجوع إلى عبادته وترك عبادة غيره ، والرجوع عن رجاء غيره إلى رجائه ، وعن الخوف من غيره إلى الخوف منه وحده ، وعن معصيته ومخالفته إلى طاعته ، وهي تنبع من رؤية التقصير الدائم والمستمر والتقلب الذي لو لا الله لهلك العبد ،

تَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا
فَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا (١)

وعند تأمل هذا الدعاء العظيم الذي هو بين يدي الفاتحة الكنز الأعظم والسبع المثاني والقرآن العظيم ، المتضمنة لنفس القضيتين ؛ نجد أنه قد تضمنَّ هاتين القضيتين عدَّة مرات

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٧) .

ولكن بعبارات مختلفة وتوجهات متعددة ، فـ« **بك خاصمت** » فيها معنى التوكل والاستعانة ، و« **إليك حاكمت** » فيها معنى الاستسلام للشرع وهو العبادة ، « **وأنت إلهي لا إله إلا أنت** » فيه معنى العبادة والتأله له ـ سبحانه ـ وحده لا شريك له ، و « **لا حول ولا قوة إلا بك** » فيها معنى الافتقار والاستعانة والتوكل ، والاقتران بين هاتين المسألتين كثير في القرآن والسنة ؛ لأهميتها العظيمة ، فأولها الفاتحة كما ذكرنا ، ثم في قوله تعالى عن شعيب عليه السلام : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود : ٨٨] .

فالإصلاح هو العبادة والإقرار بأن التوفيق لا يكون إلاَّ بالله هو الاستعانة ، وقوله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] فيه نفس المسألتين أيضًا التوكل والإنابة ، وقوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] وقوله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] ، وفي آيات آخر من القرآن ومواضع

من السنة ؛ وذلك التكرار يؤكد أهمية هاتين المسألتين للعبد وحاجته إلى تجديدهما في القلب كل حين ؛ لأنه يشرد بعيدًا عنهما في زحمة الحياة والتعلق بأسبابها وتفرق غايتها ومراداته منها ، فكلما كرر هذه الكلمات المنيرة حيي بها قلبه وتجددت عزائمه في سيره إلى الله ، وتذكَّر حقيقة هدفه في الحياة ، ووسيلته لتحقيق هذا الهدف ، فاللهم عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

قوله ﷺ : « وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ » الدنيا مليئة بالصراعات والخصومات ، فأكثر الخلق يُخاصمون لأجل حظوظ أنفسهم وشهواتهم وإرادة العلو في الأرض والفساد ، وهم في خصومتهم يعتمدون على قوتهم وجنودهم وسلاحهم وعتادهم ، وهم في خصوماتهم يحاكمون خصومهم إلى الأهواء والآراء والسياسات والعقول ، وشرعة الجاهلية وأحكامها ، وكثيرًا ما يحاكمون إلى ما يريده صاحب القوة والسلطان ، فما يريده هو الحق عندهم وما لا يريده هو

الباطل مهما كانت الأدلة والبينات على غير ذلك ، وما يقوله هو الصدق حتَّى لو كان أكذب الكذب ، وما لا يريد أن يسمعه هو الكذب والزور حتَّى لو كان أصدق الصدق .

فهذه حال أهل الدنيا وما أكثرهم ، بعيد عن هذه الزبالات والنجاسات يعلو عليها ويرتفع إلى القمم العالية إلى آفاق السماوات ، فهو إذا خاصم خاصم لله ﷻ ولحقّه ولدينه ولشرعه ، وهو في خصومته يستحضر ضعفه وعجزه وقلة عدده وعدته ، وما بيده لا يثق فيه ولا يعتمد عليه ، بل هو يخاصم بالله وحده لا شريك له ، ولا يتوكل على أعوانه ولا شفائعه ، ولا يخاصم بكثرة جنود وعَدد وعُدَد ، بل كلما كان أضعف في شعوره بنفسه كان أقوى بشدة لجوئه إلى ربه ، وكان أقوى بربه وبحوله وبقوته .

قال النبي ﷺ : « هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ ؟» (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦) .

﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فاللهم إنا قليل مستضعفون في الأرض قد تخطفنا الناس فآونا وأيّدْنا بنصرك وارزقنا من الطيبات واجعلنا من الشاكرين، وإن المؤمن في شدة المحن التي هي منح، وكلما ظهرت أمارات غدر الأعداء ونقضهم العهود وخلف الوعود وعدم الوفاء بما يقولون للوسطاء والشفعاء، وجد أثر هذه الكلمة « وبك خاصمت »، وهو يقولها بتوكل أتم مما لو تعلقت نفسه بالكلمات الكاذبة والوعود الوهمية، وكلما تذكرنا مستقبل الدعوة وحال المسلمين في كل مكان من الضعف والهزيمة وتسلط الأعداء ولا ندري أين المخرج؛ كان أثر هذه الكلمة في إزالة الهموم والغموم أعظم ولله الحمد والمنة.

والمؤمن في تحاكمه باذل جهده مستفرغ وسعه في أن يحاكم نفسه وخصمه ومخالفيه في كل شيء في مسائل الاعتقاد والإيمان، وفي مسائل الأعمال والمعاملات، وفي مسائل

القلوب وأحوالها ومنازلها ، وفي مسائل السلوك والأخلاق ، وفي المواقف من الأحداث التي تقع حوله ؛ إلى شرع الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ وإجماع أهل السنة وما يتفرع على هذه الثلاثة من قياس صحيح أو مصلحة معتبرة أو غير ذلك من مصادر الأدلة التي يُعرف بها حكم الله الحكم العدل الذي أخبر به على ألسنة رسله ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

وإنه لمن الشرف للمرء – عند الله وعند الذين آمنوا – أن تكون تهمته وعقوبته على أنه يُحاكِم إلى الله دون حكم الجاهلية ، وإنه لينبغي أن يستصغر ما يصيبه من البلاء مع عظم هذه النعمة ، وإن كان المرء ضعيفًا عاجزًا قليل الصبر ، فاللهم لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، وارزقنا العافية في الدين والدنيا والآخرة ، هذا ولمَ يَزلْ أهل العلم يصيبهم البلاء والمحنة بسبب هذه المسألة ، وإن قيامهم بها لَهُوَ من شكر الله على نعمة العلم ، وإذا رأى المرء غيره – ممن هو أقل منه رزقًا في العلم والفهم – يتحمل أضعاف ما يتحمله من البلاء ؛ فلا بد أن

يلوم نفسه على تقصيرها وجزعها واستعجالها ، فاللهم غفرانك وعفوك ومعافاتك ورحمتك ، أنت فارج الهم وكاشف الغم مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها أنت ترحمنا فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك .

قوله ﷺ : « أنتَ ربُّنا وإليكَ المصيرُ » الإيمان بالله واليوم الآخر قرينان لا ينفصلان وقد تكرر الجمع بينهما في الكتاب والسنة كثيرًا ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وقال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » وفي أحاديث كثيرة « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »[1] .

ومعاني الربوبية كلها مرتبطة بالإيمان باليوم الآخر

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

ارتباطًا وثيقًا ، فمعنى الخلق والرزق والتدبير فيه بدء الخلق وإعادته ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] والإيمان بالإعادة هو الإيمان باليوم الآخر ، ومعنى الملك يظهر جليًا بلا منازعة في اليوم الآخر ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الحج : ٥٦] ، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] ، وإن معنى السيادة والأمر والنهي والتشريع ارتباطه باليوم الآخر الذي هو يوم الحساب على امتثال الأوامر والنواهي واتباع الشرع ؛ ارتباط ظاهر .

واستحضار أن المصير إلى الله ـ سبحانه ـ بعد : « وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ » عظيم الأهمية في تحصيل الصبر على الخصومة في الله ﷻ ومن أجله ولنصرة دينه ومخالفة الخلق مع الحاجة إليهم في الدنيا إيثارًا لتحكيم شرع الله وأمره ودينه مما يترتب عليه عدواتهم وبذلهم الجهد في أذية المخالف لهم ، فيُهَوِّن على المرء ما يصنعونه ويمكرونه من العدواة ، أن المصير إلى الله ، فلا بد لكل مخلوق من نهاية من لذة أو ألم أو ولاية

أو عداوة ولا يبقى إلاَّ ما ابتغي به وجهه ﷻ ، فيَهُون على العبد ما يفوته بسبب الخصومة في الله من نعيم الدنيا ويَهون عليه الأذى الذي يصيبه ويحتسبه عند الله فيصبر ثم يرضي .

نسأل الله أن يرزقنا الرضا بعد القضاء ، وهذا المعنى مذكور في قوله ـ تعالى ـ عن المؤمنين مع إبراهيم عليه السلام بعد إعلانهم عداوة قومهم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة : ٤-٥] ، فلا نترك المخاصمة لله وبالله ولا نحاكم إلى غيره ، ونبرأ من كل تحاكم إلى غيره ، ونرجو الأجر يوم المصير إلى الله ، ونخاف إن خالفنا شرعه ووافقنا أعداءه من يوم المصير إلى الله ، فهو يتضمن معنى الخوف والرجاء ، ويوجب الصبر والثبات ، والله المستعان .

« فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وما أنتَ أعلمُ به مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، أنتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » العبد بهذه الكلمات يستشعر أنه غريق قد أُحيط به من كل جانب ، إلاَّ أن ينقذه ربه وإلهه ومولاه ، فذنوبه قد أحاطت به من كل جانب ، قد تقدم منها كثير ، وقد تأخر كثير ، وقد أسر كثيرًا وقد أعلن كثيرًا ، فضلًا عن ما لا يعلمه من ذنوبه ، وقد أحاط بها ربه علمًا ، فمن ينجيه إلاَّ الله ؟ ! وإذا تذّكر العبد أن قائل هذه الكلمات هو محمد ﷺ خير الخليقة وسيد الأولين والآخرين وصاحب المقام المحمود والشفاعة المقبولة المعصوم ﷺ ، فكيف بك يا نفس ؟ ! وكيف أحاطة الذنوب بها ؟ وأين علمك من علم النبي ﷺ الذي يعلم من نفسه ما يستحق الاستغفار في اليوم مائة مرة ، فكيف وأنت لا تدري من نفسك وعيوبها وأمراضها وأسرارها ما لا يعلمه إلاَّ الله الذي يعلم السر وأخفى ، فإن للنفس أغوارًا بعيدة هو ـ سبحانه ـ أعلم بما فيها والتي لو حاسب عليها العبد لهلك ، ولولا لطفه

ورحمته ﷻ لظهر من بعضها ما ظهر من إبليس ، ولقادته السيئة الباطنة إلى سيئة بعدها إلى أن ينتهي إلى الهلاك والعياذ بالله .

والله لا ينجي من ذلك إلاَّ الله ، ولا يغفره إلاَّ الله ، فاللهم أغثنا اللهم أغثنا ، والتوسل إلى الله في هذا المقام بأسمائه الحسنى : المقدِّم والمؤخر ؛ يتضمن طلبًا وسؤالًا أن يقدِّمه الله في طاعته ، واستعاذة من أن يؤخره في معصيته مع الخالفين ، ثم التوسل إلى الله بألوهيته المضافة إلى ضمير المتكلم المفرد « أنت إلهي » فيه من معنى الخصوصية في التوجه والإخلاص ما يشعر العبد به أنه مع ربه وحده ، ولربه وحده ، وسوف يلقاه وحده ، ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٥] فلا أهل ولا ولد ولا مال ولا إخوان ولا أخوات ولا شيء إلاَّ ما كان بينه وبينه .

ثم يقرر العبد حقيقة التوحيد وانفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية واستحقاق العبادة من العبد نفسه ومن غيره « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ » ، فلا يستحق أحد أن يُعبد سواك يارب لا إله لي

سواك ، ولا إله لغيري من العبيد سواك ، الكل يحق له أن يحبه وأن يخضع له ويذل له ويخافه ويرجوه ويتوكل عليه وحده لا شريك له ، أنا أفعل ذلك يارب ، فأنت إلهي ، والخلق كلهم عليهم أن يفعلوا ذلك ، ولن يتم ذلك لأحد إلاَّ بحولك وقوتك .

« وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » هذه الكلمة التي هي كنز من كنوز الجنة كما قال رسول الله ﷺ ، فهنا تظهر حقيقة الفقر التام والعجز التام ، وصف حقيقيّ للعبد نفسه وللعباد جميعًا ، فلا حول لنا ولا لأحد إلاَّ به ، ولا يتحول أحد عن حال إلى غيره إلاَّ بالله ـ سبحانه ـ ولا قوة ولا قدرة إلاَّ بالله ـ سبحانه ـ وهذا مع الذي قبله « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » يتضمن حقيقة الإيمان بالشرع والعمل به ، والإيمان بالقدر واليقين والتفويض والتوكل على الله ـ سبحانه ـ ، ففيه إثبات القوة والقدرة للعبد بالله لا بنفسه وأن عمله في توحيد الله وعبادته لا يكون إلاَّ بتوفيقه وإعانته فيمنع العجب والغرور والكبر وسلسلة الأمراض الإبليسية .

والله إن القلب ليتقلب في اليوم عشرات المرات ، وربما المئات ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله ، وإذا كانت الأعمال القلبية التي قد تستغرق لحظة أو أقل لها أثر في المنازل عند الله ، فقد أخبر النبي ﷺ عن شهداء مؤتة : زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة ، أنه رأى في المنام أنهم على أسرة عند ربهم ، ورأى في سرير عبد الله ازوارًا عن سرير صاحبيه ؛ لأنهما عند الموت ما تردّدا ، وتردد هو بعض التردد ، ثم أقدم ، فيا سبحان الله هولاء الأفذاذ الشهداء بشهادة رسول الله ﷺ مجرد لحظة فرقت بين منزلة ومنزلة ، وكذلك في أهل بدر خيرة أهل الأرض وأفضل الصحابة الذين ما تخلفوا ولا توقفوا ، بل قالوا لرسول الله ﷺ : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون » قال تعالى عنهم ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال :٥-٦] مجرد كراهية لم تؤثر فعلًا ، ولا

معصية ، ومجرد مودة نصر سهلٍ على نصر صعب ؛ عوتبوا عليه أو عوتب من وقع منه ذلك ، وكان نقصًا بالنسبة إلى من لم يقع منه ، فكيف حالنا وحال قلوبنا وهي تَرِدُ عليها ما يستحي العبد منه ، ويخشى أن يحرم رفقة الصالحين بسببه ؟!

ولكن لا حول ولا قوة إلاَّ بالله ، ولا ملجأ إلاَّ إلى الله الرحمن الرحيم ، والله إن لم يغفر لنا ربنا ويرحمنا لنكونن من الخاسرين ، وإنما ذكرت ذلك حتَّى لا تغرنا نفوسنا عن نفوسنا ونظن لها الأحوال والمقامات العالية وهي بعد في سفح الجبل ، فاللهم ارفعنا بآياتك ، والْطف بنا بعفوك ومغفرتك ، وتجاَوزْ عمَّا تعلم ، وخذ بنواصينا إليك ، وثبّت قلوبنا على دينك ، وارؤف بنا وارحمنا إنك أنت الرؤوف الرحيم ، لا إله إلاَّ أنت ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بك .

الرسالة الثالثة

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : « دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، (وفي رواية : وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ) ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ (وفي رواية : وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ) » [1] .

إن المتدبر لأدعية الرسول ﷺ يدرك بيقين أن كل دعاء منها معجزة من معجزاته ﷺ ودليل من دلائل نبوته ، ومن أدعيته ﷺ حين مواجهة الأعداء وفي شدائد الأحوال « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ » .

أول ما توسل به ﷺ في هذا الدعاء من أسمائه الحسنى : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ » ، فهذه المعركة بين المؤمنين والكفار

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٣) .

إنما هي بسبب إقامة الشرع الذي أنزله الله في الكتاب ، فهو الذي أنزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط وليحكم بين الناس بالحق فيما اختلفوا فيه ، والكفار وأعداء الإسلام لا يريدون أن يحكم القرآن بين الناس ولا أن تقام الشريعة ، ولهذا قامت المعركة ، فيفصل فيها منزل الكتاب ، ويقضي هو في هذه الخصومة ، وهو ـ سبحانه ـ قد حكم فيها في نهاية الأمر بانتصار الإسلام ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ولكن لا يلزم لجيل معين ولا لأفراد معينين أن يقع هذا النصر على أيديهم ، بل ربما يُقتل الرسول وبعض أتباعه ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولذا فعليهم أن تتعلق قلوبهم بالنصر يوم يقوم الأشهاد ، الوعد حاصل للجملة والمجموع ، والأفراد يأخذون حقهم وافيًا كاملًا يوم القيامة ، وبعضهم يدركه في الدنيا ، والمهم أن نكون لبنات من البناء ، وخطوات على الطريق ، ولتتعلق

قلوبنا بقوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم ٤٢] ، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٧-٥٠] فلا ننتظر الفصل في المعركة في دنيانا وحياتنا ، وإن كنا جازمين بأنها لا بد أن تنتهي بالنصر لنا أو لبعضنا أو لأبنائنا أو لأحفادنا .

فمن أبنائنا وأحفادنا من سيكونون مع المهدي ومع المسيح عليه السلام ، يقتلون كفرة أهل الكتاب من النصارى واليهود في الملاحم الكبرى ، وقبل ذلك لا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة ، وهذا يقين لا شك فيه مهما كانت الأسباب الظاهرة تخالفه ، وقد تنتهي حياتنا قبل أن نراه ، ولكن الفصل التام وأداء الحقوق إلى أهلها هو في يوم

الفصل ، اليوم الذي أجلت له الرسل ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ [المرسلات : ١١-١٣] .

ثم التوسل الثاني الذي توسل به النبي ﷺ في دعائه : « **وَمُجْرِيَ السَّحَابِ** » فنظر العبد إلى الأرض كثيرًا ما يجعله يظن أن الملك فيها لأهلها وأنهم قادرون عليها ، وغالبًا ما يكون السلطان فيها للكفرة والظلمة ، فأكثر الناس يغرهم تقلب الذين كفروا في البلاد ، ويرون قوتهم وأسلحتهم وعتادهم فيقولون : « لا نستطيع أن نقف في وجوههم » ، فيتبعونهم ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، ويحاربون الحق مع أهل الباطل لينالوا نصيبًا من عطائهم ، فكيف نتخلص من هذه النظرة الضيقة غير الحقيقة ؟ .

ارفع بصرك إلى السماء تَرَ ملكوت السماوات لله ، فتَرَ أيضًا ملكوت الأرض لله فتكون من الموقنين ، كما كان إبراهيم عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥] إن نظرة إلى السحاب من يجريه ؟ ومَن

يجعل الشمس تأتي من المشرق وتذهب إلى المغرب ؟ ، ومَن يملك الأمر في السماوات بنجومها وكواكبها ؟ ، والكرة الأرضية كذرة في هذا الكون الفسيح ، فكيف يظن عاقل أن الكفار يملكون شيئًا ؟!

ثم انزل إلى الأرض هل هُمْ يملكون ثبوتها فلم تتزلزل ؟ ، كيف تقع الزلازل والأعاصير والعواطف والفيضانات ؟ هل يملك أحد في الأرض شيئًا من ذلك ؟ قطعًا لا ، وهذه الأمور تصيبهم أمام أعيننا كل يوم فلا يملكون لها دفعًا ، وإن كانت لا تستأصلهم إلا إذا شاء الله كقوم نوح وعاد وثمود ، لإرادة الله في اختبارنا واختبارهم ، فهو قادر ـ سبحانه ـ أن يخسف بهم الأرض فتبتلعهم ، قادر أن يرسل عليهم حاصبًا من السماء كأصحاب الفيل فيقتلهم ، قادر أن يأمر البحار فتغرقهم ، ولكنه حليم عليم ، وكيده متين ، ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] .

ثم نظرة أخرى لنوقن أن الموازين ليست بأيدي الناس ، هل أنفس الكفرة والظلمة بل والمؤمنين بأيديهم ؟ هل نبض القلوب باختيار أحد ؟ هل يملك السمع والبصر أحد ؟ لو كان كذلك لما مات إنسان ولا مرض ولا ذهب سمع ولا بصر .

إن الدم يجري في عروق الظلمة بقدرة الله وأمره لا بأيديهم ولا بأيدينا : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ [الأنفال : ١٧] وهذه ـ والله ـ حقيقة يقينه عقلية وليست نقلية فقط ، فلا يملك من البشر أحد موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، إذن ارتفع ببصرك إلى السماء لتتخلص من أسر التفكير الضيق بأن أهل الأرض يملكونها ويملكون القوة فيها ، إنه امتحان يساعدك على النجاح فيه أن تعلم أن الله هو الذي أجرى السحاب وله ملكوت السماوات والأرض ، ويقضي في هذه الخصومة بين أوليائه وأعدائه ، فاللهم مجري السحاب اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم .

ثم التوسل الثالث في هذا الدعاء : « وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ » ،

والأحزاب كل من تحزب وتجمع لقتال الأنبياء والأولياء ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[غافر : ٥] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ [ص : ١٢-١٣] ، وفي كل زمان أحزاب يتحزبون ويجتمعون لحرب الدين ، ولقد كان يوم الأحزاب في سيرة رسول الله ﷺ من أيام الله التي أظهر فيها قدرته وجعل التوسل بفعله ـ سبحانه ـ في هذا اليوم من أسباب نُصرة المؤمنين في كل زمان ومكان ، وما أشبه تجمع الأمم على المسلمين اليوم بهذا اليوم ، وإن كان الكفار اليوم قد يئسوا من ديننا ، وهذا من معجزات القرآن أيضًا فيوم أنزل الله سبحانه ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] من يومها والكفرة لا يأملون في اجتثاث الإسلام كما كانوا يأملون ذلك قبل نزولها في يوم عرفة سنة عشر من الهجرة ، ففي يوم الأحزاب كانت الحرب على « لا إله إلا الله »

المطلوب أن يتركها المسلمون ويعودوا إلى الشرك . أما اليوم فرغم شدة الحرب في الأرض كلها وشدة المطاردة والاضطهاد حتى لكأن بلاد الأرض كلها لا يجد فيها المسلمون مأوى آمنًا فيها إلا شعف الجبال ، ومع ذلك فالكفار لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين : اتركوا « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » بل يتدثرون بأنهم لا يحاربون الدين ولا يريدون أن يترك المسلمون دينهم ، مع أن هذه حقيقة المسألة وحقيقة الصراع وهدف المعركة ، لكنهم لعلمهم بأنهم لو قالوا ذلك لهاج عليهم المسلمون بما لا طاقة لهم به ، فالإسلام يفجر في أهله طاقات لو خرجت ما قامت لها الدنيا بأسرها ، ولذا هم حريصون أن يظل الإسلام خارج المعركة ، تكون قومية لا مانع ، وطنية لا مانع ، حزبية قبلية لا مانع ، عرقية ، أما دينية فلا وألف لا ، ولو بتفاوت هائل في القوة ، إنهم يقطعون بأنهم لا ينتصرون إلا بالمنافقين والخائنين .

إن ما حدث في العراق سيثبت التاريخ أن من ورائه خيانة وَبْيعًا مثلما وقع بالأمس في كابُل ، إذ كان بشعار لا حقيقة له في

الواقع والتطبيق ، وهو التكبير الذي لو كان حقًا يقوله الجنود والقادة لطبقوه في حياتهم فكبروا أمر الله ونهيه ، وعظموا شرعه وطبقوه ، وملؤوا قلوبهم بحبه وجوارحهم بامتثال أمره ، ولتابوا إلى الله من البعثية والاشتراكية والحزبية ، وهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك ، ومع ذلك بمجرد نطق الألسنة به صمدت بلاد هي في وجهة النظر العسكرية كقرى صغيرة ، وكانت شبه منزوعة السلاح صمدت ثلاثة أسابيع ما سيطروا عليها رغم كل القوة الهائلة ، هم والله أجبن من أن يقاتلوا أهل الإسلام . ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٢٢] فكيف ينهار كل شيء في لحظة إلا بخيانات المنافقين .

إن معركة الإسلام لن يقوم بها إلا أهل الإسلام الذين تربوا التربية الإيمانية الخاصة الخالصة على الإسلام والإيمان والإحسان وتحقيق العبودية في السراء والضراء والمنشط والمكره ، أقول كل هذا من دلائل أن الكفار يائسون من الإسلام ؛ لأنه مازال يُفجِّر الطاقات الهائلة في الأمة ، ويجعل

الناس يبيعون الحياة ويشترون الموت في سبيل الله لا العكس ، ولهذا يحاولون أن يقولوا : الحرب ليست دينية . ويروج المنافقون والزنادقة لهم بذلك . والله المستعان .

والمسلمون يوم الأحزاب كانوا في مساحة من الأرض هي مقدار مساحة مسجد النبي ﷺ الآن ، التي تمتلىء عن آخرها وزيادة في المواسم بالمسلمين المصلين بلا موضع لقدم ، وكان الإسلام في الأرض كلها هو هذه البقعة ، والمطلوب اجتثاث الإسلام نفسه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] هي نعمة ليست فقط على الصحابة بل علينا كذلك ، نذكرها لأننا مسلمون الآن بفضل الله أن هزم الأحزاب وحده ، فتحولت الموازين ، وصرنا كما قال رسول الله ﷺ عند رحيل الأحزاب : « الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا » (١) وقد كان .

---

(١) رواه البخاري (٤١١٠) .

قال تعالى ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٠] فعسكر أكبر جيش من العرب المشركين عشرة آلاف شمال شرق المدينة ، وكان يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد وخانوا ونكثوا كعادتهم جنوب المدينة ، وصار المسلمون ـ وكان عددهم في أول الأمر ثلاثة آلف وصلوا في يوم رحيل الأحزاب إلى ثلاثمائة فقط مع رسول الله ﷺ ـ صاروا بين فكي كماشة كما يقولون ، المشركون يريدون أن يُخدموا نساءهم أصحاب رسول الله ﷺ وأولادهم ، يريدون قتل الرسول والصحابة وسبي النساء والذرية وانتهاك الحرمات والأعراض ، ما أعظم الخطر ، وما أشد تباين القوة ، نحن الآن علمنا نهاية المعركة ، لكن ضع نفسك في معمئتها وتصور أنك بالمدينة ساعتئذ في تلك اللحظات العصيبة ، والنتائج غير المعلومة ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأحزاب : ١٠] خوفًا وهلعًا ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] من شدة النبض حتى لتكاد تصل إلى الحنجرة ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب : ١٠] ظنون كثيرة حتى من

المؤمنين أنفسهم كانت هناك خواطر ووساوس متفاوتة : ماذا يصنع الله بنا ؟!

هل تكون نهايتنا مثلًا كنهاية أصحاب الأخدود ؟ ، يوسوس الشيطان كما يوسوس لكثير من الناس اليوم بأنها نهاية المطاف ، وأن الباطل سيظهر والإسلام سيضمحل ، مع أنَّ نهاية قصة أصحاب الأخدود كانت أيضًا ظهور الحق وإن قُتل المؤمنون وحُرِّقوا .

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] إنها مرحلة مهمة لتمحيص المؤمنين ، لتسقط الأوراق الجافة من الشجرة ، الأوراق التي ماتت ولا نفع فيها ، حتى تستعيد الشجرة نضارتها وحيويتها ، الناس اليوم لا يطلب منهم إلا أن يتركوا الالتزام ببعض مظاهر الدين لا بأصوله ، لا يقال لهم : اتركوا الشهادتين ولا الصلاة ولاالزكاة ولا صوم رمضان ولا الحج ، وإنما يطلب منهم أن يتركوا تطبيق الإسلام في حياتهم وأن يعيشوا من أجله ، ومع ذلك فالوساوس في نفوس الناس ما أكثرها ، كيف يترك الله

هؤلاء الكفرة يعيثون في الأرض فسادًا ويقتلون ويهدمون ويخربون وفي النهاية ينتصرون ؟ نعوذ بالله من الضلال ، إن الأحداث لتثبت كَمْ هم ضعفاء في الحقيقة لمن تأمل ، ومع ذلك فكثير من الناس سوف يضل ، فكيف بيوم الأحزاب ؟ ، وكيف بظنون المنافقين ومرضى القلوب ؟! ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : ١٢] في حفر الخندق ضرب رسول الله ﷺ صخرة كئودًا وبشرهم بملك كنوز كسرى ، وضرب ضربةً أخرى فبشرهم بملك قيصر ، فقال المنافقون – كما روى الإمام الطبري – : قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبيّ صلى الله عليه وسلم: يا فلان أرأيت إذ يقول رسول الله ﷺ : « إِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ ، والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما في سَبِيلِ الله » فأين هذا من هذا ، وأحدُنا لا يستطيعُ أن يخرجَ يبولُ من الخوف ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ؟ فقال له : كذبتَ ، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ خبرَك ، قال : فأتى رسولَ الله ﷺ ،

فأخبره ، فدعاه فقال: « **ما قلتَ ؟** » فقال : كذَبَ عليّ يا رسولَ الله ، ما قلتُ شيئًا ، ما خَرَجَ هذامن فمي قطّ ، قال الله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] قال : « **فهذا قولُ الله : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾** [التوبة : ٦٦] »[(١)] .

كما يقول القائلون اليوم : أحلام التمكين وأوهام عودة الخلافة وخرافة المهدي .

أليس قد قائلهم : إن حضارة الغرب حضارة لن تبيد فهذا زمن موت الإله ومولد السوبر مان ؟! نعوذ بالله من الكفر ، فها هي حضارتهم انهارت مبادئها بالكلية ، أذابت الشمس أصنامهم الثلجية ، فضاعت الحرية ، وسقطت حقوق الإنسان ، وأكلوا صنم العجوة « الشرعية الدولية » ، واتسعت بطونهم لبلع الحقائق ، فصار العالم كله يعلم أنهم أكذب وأفجر وأظلم ، أنهم المتجبرون الطغاة في هذا الزمان ؟ ، ومع ذلك فهناك من يقول ممن في قلوبهم

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٠) ، ومسلم (٢٩١٨) .

ض : ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، مضى عهد التدين ، وهذا زمن الطاعة العمياء للغرب الحاقد ، نعوذ بالله ، ونسأله أن يعيذنا من الفتن .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب : ١٣] تخاطب طائفة من المنافقين أهل المدينة بالاسم القديم يثرب ، وقد تُرك هذا الاسم لما وصل إليها رسول الله ﷺ ، وتنورت بمقدمه فصارت المدينة ، ولكنهم يستعملون الاسم القديم إشارة إلى أن الأوضاع ستعود إلى ما كانت عليه في الجاهلية ، جاء الإسلام مؤقتًا وسيزول وسيضمحل وترجع الأمور إلى ما كانت عليه ، الصحوة جاءت وستذهب ، ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ لا مقام لكم مع الرسول ﷺ فارجعوا إلى بيوتكم ، كما يقول القائلون : لا مقام لكم في الالتزام فارجعوا إلى بيوتكم ودنياكم فاهتموا بها ، ربوا عيالكم ، ابحثوا عن مصالحكم ، دعوكم من قضية الدين والتدين وأقصاها أن تكون في نفسك لا دخل لك بقضية نصرة الإسلام ، اللهم نسألك العافية .

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب : ١٣] أي : مكشوفة للأعداء ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ [الأحزاب : ١٣] كذبوا في قولهم ؛ لأن المدينة كلها سواء في التعرض للمخاطر ، المدينة كلها لو انكشفت لما صار هناك فرق بين بيت وبيت ، وإنما المسألة أنهم ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب : ١٣] إنه الخوف والهلع والرغبة في الحفاظ على الدنيا ، اللهم إنا نستغيث بك أن تضلنا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون ، ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ [الأحزاب : ١٤] أي : لو دخلت عليهم المدينة من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي : طلب منهم الشرك ﴿ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٤] وما توقفوا عن إعطاء الشرك إلا تلبثًا يسيرًا وتوقفًا يسيرًا .

دل ذلك على أنهم لم يكونوا منافقين النفاق الأكبر في الأصل ولكن مع الفتنة نافقوا وحدثوا أنفسهم أنهم لو سئلوا الشرك لقبلوا ، والله هو المطلع على ما في قلوبهم ، فإن هذا لم يقع ، ولكن علام الغيوب هو الذي أخبر عن نيات نفوسهم

وخلجات قلوبهم واستعدادهم للبيع كما يبيع كثير من الناس اليوم دينهم بعَرَض من الدنيا ، وهو ـ والله ـ عرض حقير تجد أحدهم قد بلغ الستين والسبعين وبينه وبينه وبين القبر لحظات وخطوات ويبيع دينه بدنيا ملؤها الذل والهوان والتعب والمرض والشقاء والتعاسة ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب :١٥-١٦] .

فهل سيخلد أحد ؟! وهل تضمنون أن لا تقتلوا إذا فررتم ؟! ، ولو نجوتم فكم ستمتعون ؟! ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نعم والله ما مضى من العمر في غالب الظن أكثر مما بقي ، فعلام يباع المتاع القليل المشوب بالكدر والألم بالآخرة ؟ ثم إذا نجوتم من الأعداء وكيد البشر ، ورب السماء والأرض هو الذي يريد بكم السوء والضر والعذاب ؛ فماذا يغني عنكم أحد من الخلق من الله شيئًا ؟! ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب: ١٧] ، وبدأ

بالسوء لأنهم أهله ويستحقونه ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٧-١٨] الله يعلم كم من المثبطين عن الالتزام بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ القائلين لإخوانهم هلم إلينا بعيدًا عن الدين ، تعالوا عيشوا حياتكم دعوكم من مواجهة الأحزاب والأعداء ، ابتعدوا عن الخندق مع النبي ﷺ ، السنة اليوم في مواجهة الأعداء والالتزام حول خندقها ، والمعوقون هم القائلون : اتركوا الالتزام وتعالوا إلى الدنيا ، ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨] فهم لا يحتملون الشدائد والمحن ، ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٩] ليسوا فقط بخلاء بما في أيديهم بل إذا وجدوا خيرًا دينيًا أو دنيويًا عند أهل الإيمان حسدوا وحقدوا وأرادوا أخذه ، حتى راحة البال وسكون النفس يحسدون أهل الإيمان عليها ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ خوفًا ورعبًا وهلعًا ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي

صاحوا عليكم بألسنة الذم والعيب والنقد الشديدة الحادة التي لا تعرف مودة ولا تدرك رحمة ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ﴾ [الأحزاب : ١٩-٢٠] ذهب الأحزاب وانصرفوا في أشد ليلة على المسلمين ، وصل عدد المسلمين مع رسول الله ﷺ إلى ثلاثمائة كما يذكر حذيفة رضي الله عنه : « لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، فَقَالَ : « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ » فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ ، قَالَ : « اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ

سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ قُمْ يَا نَوْمَانُ »[1] فرسول الله ﷺ يصلي هَوِيًّا - أي : جزءًا من الليل - ثم يقول : إنه قد حدث في القوم حدث ، فمن يأتيني بخبر القوم ويكون رفيقي في الجنة ؟ فما يتحرك أحد . فيصلي ﷺ هويًّا من الليل ، هكذا يكون الامتثال لأمر الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] وكان ﷺ يقول : « وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »[2] .

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٨) .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي(٣٩٣٩) ، والبيهقي ، والحاكم ، وصححه الألباني برقم : (٣١٢٤) في « صحيح الجامع » .

وكان يقول : « يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا »[1] .

يا بَنيَّ ـ والله ـ إن أملي ورجائي أن يديم الله عليَّ وعليكم نعمة الصلاة ؛ فإنها أعظم نعمة بعد الهداية للإسلام ، وهي عمود الإسلام ، وأدعوه أن يمن عليَّ وعليكم بالصلاة في قبورنا حيث لا متاعب للجسد ولا حاجة إلى النوم والراحة ، أكثر يا بنيَّ من الدعاء : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤٠-٤١] ، إنكم اليوم قد تجدون مشقة في الصلاة لأنها تؤدى بغير الخشوع المطلوب ، ولو تفكرتم في كل ما تقولون فيها لما وجدتم في الدنيا لذة أجمل منها .

نعود إلى قصة الأحزاب :

صلى رسول الله ﷺ هويًّا من الليل ثم يكرر الطلب : من يأتيني بخبر القوم ويكون رفيقي في الجنة ؟ فلا يتحرك أحد ، وفي الثالثة يقول : « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ » ، ولم يكن من طاعة رسول الله بُد ، فتأملوا هذه الشدة الشديدة التي تجعل أكابر الصحابة ،

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥) ، وصححه الألباني برقم : (٧٨٩٢) في صحيح الجامع .

منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وباقي العشرة والسابقون الأولُون من المهاجرين والأنصار ؛ لا يقومون عند هذا الترغيب ، ما لم يكن أمر صريح لابد من طاعته ، وذلك من شدة الخوف وشدة البرد وشدة الجوع وشدة الريح وشدة الظلمة .

فيقوم حذيفة ويقول له رسول الله ﷺ : « وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » ، فينطلق فـ « كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ » [1] ، وتلك عاقبة الطاعة ، يذهب الخوف والألم حتى يأتي معسكر المشركين ، فيجد أبا سفيان يُصْلِي ظهره إلى نار يوقدها ، فَيَهُمّ حذيفة أن يرميه بسهم فيقتله ، فيتذكر قول النبي ﷺ « وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » ، فلا يفعل ، ويسمع أبا سفيان وهو يقول : « الرحيل فإني مرتحل » ، وجنود الله بهم والريح تُكفِىء قدورهم وتُطفىء نيرانهم وتقلع خيامهم ، والرعب في قلوبهم فيذهب الأحزاب وتنقلب الموازين في لحظة ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر : ٥٠] والمنافقون في ظنونهم الفاسدة ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ

(١) أي : في جو دافئ مريح كجو الحمام الذي فيه الماء الساخن والبخار .

أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٠].

المؤمن الصادق يحدث نفسه أن لو كان في المعركة ؛ كل معركة مع النبي ﷺ ومع المسلمين في كل معاركهم ، ولو مع تباعد الزمان والمكان ؛ لقاتل أحسن قتال وأشده ، والمنافق حاضر يتمنى لو يغيب ، فيؤجر هذا ويوزر هذا ، والأعمال بالنيات ، ﴿ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ۝ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٠-٢١] قدوة حسنة في الثبات والسكينة ، اللهم أنزل السكينة على قلوبنا وثبت قلوبنا على دينك .

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] رجاء الله أعظم مطلوب للمؤمن ، فنصيبه من الله من قربه ومحبته والنظر إلى وجهه يوم القيامة ورضاه الذي لا سخط بعده أبدًا ؛ هو أعظم نصيب ، وهو أكبر من الجنة ﴿ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] وما فيه من أنواع النعيم في الجنة ، لكن حب الله وابتغاء مرضاته وماذاقه المؤمن في الدنيا من نعيم القرب جعله يريد الله ويرجو لقاءه أولًا ثم اليوم الآخر ، وإنما يحصل هذا لمن

ذكر الله كثيرًا وشاهد آثار أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] هو وعد لنا وليس وعيدًا ، البلاء وعد لنا من الله ورسوله ، فهو بلاء من جهة وعافية من جهات ، ونعمة من جهات ، أعظمها زيادة الإيمان والإسلام ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] يزداد الإيمان بالله بشهود أسمائه وصفاته ومحبته وقربه وآثار ربوبيته وألوهيته وذوق حلاوة ذلك ، يزداد الإيمان بالكتب ، فيتدبر القرآن ، فيذوق له طعمًا يكاد يطير قلبه في السماوات مع معانيه ، ويزداد الإيمان برسله حين يرى صفاتهم الجميلة ويعيش معهم في دعوتهم وجهادهم ومعاملتهم .

يزداد الإيمان بالملائكة حين يستشعر حبهم للمؤمن وأنهم أولياؤه في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، يصلون عليه ويستغفرون له ويدعون له فيحبهم ويحبونه ، ويزداد الإيمان باليوم الآخر حين يكون في تصديقه بالجنة والنار والحساب والقيامة كأنه يعاينها ، فيجد نعيمًا قبل النعيم ويستعيذ بالله من عذاب

الجحيم ، يزداد يقينًا بالقدر فيشهد علم الله وكتابته ومشيئته وقدرته وخلقه لأفعال عباده (١) .

ويزداد الإسلام بازدياد الصلاة والصيام والتلاوة والدعاء وسائر العبادات الظاهرة والباطنة ، فهل علمتم كيف أن البلاء وعد لنا لا وعيد ، ونعمة عظيمة تغمر ألم الخوف أو الفراق أو الجراح أو حتى الموت ، ثم كانت النهاية ـ وستكون في كل معركة ولو بعد حين ـ انتصار المسلمين وهزيمة الكفار ورحليهم ، وهزيمة يهود بني قريظة وقتل رجالهم وسبي نسائهم وصبيانهم وذراريهم ، فالحمد لله .

ثم التوسل إلى الله بسريع الحساب ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] فلا تستعجلوا .

(١) راجع كتاب « الإيمان بالقضاء القدر وأثره في السلوك » لعله يحيي هذه المعاني .

الفهرس

توزيع



الإسكندرية - أبو سليمان - ش
أمام مسجد الخلفاء الراشد
٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨ ٠١٢٠٠٠٤٦٤٦
d_kholafa2@hotmail.com





الإسكندرية - مصطفى كـ
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ ، ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧
dar_alfath@gawab.com